

دكتور أنور لوقا

جوانب خفية من الثورة العربية

سلطان أفندي



دارالمعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج ٢٠٠٤ ع .

إهداء

إلى روح أخي شكري
أول من قرأ هذه الصفحات
بعين «معاون إدارة»، الروضة
تذكراً للعهدنا في ملوى

د. أنور لوقا

مقدمة

من الواقع إلى التاريخ وبالعكس

موضوع هذا الكتاب فرض نفسه فرضا على باحث مضى يستكشف تاريخ مصر الحديث في دور الوثائق ، بعد أن تلقاه في الأربعينات كالبديهيات ضمن مناهج الدراسة الثانوية والجامعية بالقاهرة . وإذا بالخطوط المستقيمة والمعالم البارزة والمعاني المبسطة الواضحة التي عهدتها في تلك المناهج « المقررة » على شباب المثقفين تنحسر أمامه شيئا فشيئا عن ملابس وأحداث مختلطة ، وعلاقات بين الأمور مغايرة ! كان بعض ما انتهى إلى الوقوف عليه مضمرا أو خافيا ، وبعضه محذوفا أو مبتورا في الروايات والتأويلات الرسمية ، وها هو ذا يعيد النظر إلى وجوه مألوفة له من الماضي القريب ، فطن أخيرا - مع تطور مجتمعه ووعيه وتجربته العلمية - إلى أنها كانت تبدو له من خلال أقنعة . وتبرز من هذه الرؤيا الحاشدة بالألغاز والمتناقضات ملامح مجهولة من « الثورة العربية » التي تحتفل مصر اليوم بذكرائها المثوية .

« العربية » ... ألا يتجلى قبل كل شيء في هذا النعت الذي درج على ترديده كل المؤرخين طوال القرن المنصرم غرض كامن ؟ فهو تعبير دقيق ،

مجزوء ، ينطوى على الحد من شأن حركة وطنية شاملة . إن نسبة تلك الحركة إلى فرد واحد تهوين من خطرها ، بمحو دلالتها الجماعية . وترويض الأذهان على مرادفة اسم عرابي للثورة ، ومرادفة الثورة لاسم عرابي ، يؤدي إلى حصر تلك الظاهرة في شخص بذاته وما أيسر تجريحه بعد ذلك بل تسفيهه بالافتراء عليه ، مهما تكن خصاله ! وتلك حكاية « العاصي » و « العصيان » - ذلك المفهوم الذى تواطأ الحديو والسلطان والبريطانيون على أن يصادروا به سيادة شعب هب يطالب بمجلسه النيابي ، أى نهض ليحكم نفسه بنفسه .

واقعية تلك الثورة في أبعادها الجماعية :

وواقعية التجمع في تفاعل العناصر الشتية التى انصبت في بوتقة الكل . ولا نود هنا فتح باب الجدل حول الموضوعية والذاتية في كتابة التاريخ ، فهو حديث طويل متشعب ، لا تسعه صفحات مثل هذا الكتاب . والمؤكد أن الموضوعية هدف بعيد المنال لمن أراد - صادقاً - أن يرصد التاريخ أو يستقصى الواقع . فمنطق التاريخ كمنطق الواقع ، متعدد المآتى والمخارج والمزالق . تنحبك عُقْدُهُ من خيوط متفاوتة الأطوال والغلظ والألوان والمصادر . قد تلاحقه ضوابط العقل فيندُّ عنها ما يجري في أغوار النفس - فردية وجماعية . ثم لا ينقطع في أثناء صياغة المعلومات في قوالب اللغة تشكُّل المعانى بين يدي المؤرخ بأشكال التراكيب المتداولة ، والألفاظ المتداعية ، التى يولد سياقها اللغوى معنى إجمالياً - يطفى على المعنى الذى تؤديه فردية كل جزء - أو يستدرجها معنى مسبق فينظمها في عقده نظماً متعمداً . لذا أصبح المؤرخون

اليوم يفتشون عن التاريخ فيما وراء «كلام التاريخ» ، ويحاولون تقييم الخبر بالقياس إلى أساليب إذاعة الخبر في الناس .

من تلك المنافذ المستترة - التي يعرفها علماء اللغة والمنطق والتحليل النفسى والمجتمع - تسللت أدوات الإعلام في مختلف العهود لتوجيه « التاريخ » ، أى لتقديم حديث عن الماضى طبقا لخطة موضوعة ذات هدف خاص . ومادام التاريخ أحاديث لا تبلغ الآذان والأذهان إلا على متن سرد متصل ، وجمل نحوية مفيدة مترابطة ، فإن مجال التعسف الخارجى مفتوح عند تدوينه للمتصرف الخبير بقواعد فن السرد ، وصناعة البلاغة ، وجرجات الإيجاز والإطناب ، وحيل التقديم والتأخير ، والموازنة والتبويب والمدح بما يشبه الذم ، أو الذم بما يشبه المدح . .

هكذا تحتل مكان الصدارة فى كل عهد من عهود كتابة تاريخ ما ، صور لأشخاص بعينهم ، أوقفهم « الزمن » مواقف حددها لهم ، دون سواها ، حول محور معلوم . صور مكبرة تحجب عن الأبصار ماعداها ، وتستقطب من جوارها التفاصيل ، وتؤدى إلى تبلور الأفكار والعبر فى الأذهان بحسب غرض المؤلف أو مكانه من بيئته وعصره ، وعوامل الضغط المادية والسياسية المسيطرة على مجالات نشاطه .

ومهما يكن من مذاهب النقد اليوم فى معالجة مشكلة تأريخ التاريخ ، فإن الباحث فيما بقى ، أو فيما أتيج له الاطلاع عليه من آثار الماضى ، لا يصادف الوقائع « الخام » التى يتألف منها ذلك الماضى إلا مصادفة ذرات من ظاهر الحياة متفرقة . لذا كانت الصفحات التالية رجوعا إلى الواقع أولا ، بالرجوع إلى

التعدد والتنوع والثراء الذى جاشب به أرض مصر فى حقبة فريدة . إنها استعراض لمشاهد من الصعيد والقاهرة ، وتعرف بوجوه مغمورة . وقد استحضرتها الذاكرة لإحياء عهد صفته الغالبة هى « الحركة » . ليست هذه الصفحات إذن محاولة لإعادة كتابة التاريخ ، بقدر ما هى محاولة لإعادة قراءته - بالمعنى الوارد فى معاجم اللغة العربية :

« قرأ الشئ : جمعه وضم بعضه إلى بعض » .

وقد جمع « القارئ » هذه المادة - وضم بعضها إلى بعض - خلال جولات مستأنية فى المطبوع والمخطوط من أوراق ذلك العصر ، فى أثناء الإعداد لأبحاث علمية استغرقت عدة سنوات بين القاهرة وباريس ولندن وبرن وجنيف . استخلص إشارات وشواهد من بطون الدوريات والرسائل والمذكرات ، وتقارير القناصل وكتب الرحالة ، وملفات القضايا « المحفوظة » أى المنسية . . وتجاوبت فى أفق آخر ، مواز هامشى ، أليف مع ذلك ، أصداء الوقائع المتناثرة ، والعبارات الشاردة ، وأطراف المآسى والمهازل الصارخة حيناً والمكتومة فى أكثر الأحيان . ولم تزل تمتد بين تلك العلامات المترامية خيوط تتبّعها الناظر من بعيد ، وأعانه على نسجها عن كتب لفيف من ذكريات الصبا والشباب فى هذه الربوع التى كانت مسرح الأحداث .

فى الواقع العريض الذى أشرف عليه « القارئ » ، أفلتت الثورة من مدارجها المعروفة . لم تعد سلوكاً واحداً يمليه على الناس ذلك النموذج الأخلاقى البطولى الحماسى الذى اعتاد الأدباء والخطباء تصويره ثابتاً ثبات المثل الأعلى ، واعتاد النشء تطبيقه على كل رجل من رجال الحركة ، لتمجيده أولومه بمقدار

صدوره أو انحرافه عن ذلك المقصد الشريف . إنها شرارات انطلاق وتحرك وتجمهر وتلاحم ، لا فترة ثبات وتأمل وروية واعتزال . وفي وسط اضطراب المجتمع ، وتفجر القوى ، وانقلاب العلاقات القائمة ، تسفر العواطف وتشتد الأهواء ، وتتداخل المصالح وتتناقض ، ويخرج الناس من طور إلى طور ، مندفعين بجوافر ماضيهم وحاضرهم ، واقتصادهم وثقافتهم ... كلا ، لم تكن الثورة العربية تصميماً هندسياً قائم الزوايا ، أو عملية طبية تامة التعقيم . لقد حالت بينها وبين الجمود مؤامرات مفاجئة وضغوط متلاحقة وأزمات وطوارئ غيرت التشكيلات خارجها وداخلها مرارا . إنها معمعة ضخمة خاضها إلى جانب عرابي أو ضده أو بعيدا عنه عشرات ومئات وألوف ، أولئك الذين حوكموا معه وتضاربت أقوالهم تحت إرهاب القضاء الحكومي ، كما تضاربت أعمالهم في انتهاز الفرص ، وأولئك الجنود المجهولون الذين ضحوا وتلاشى ذكر تضحياتهم ، فضلا عن جموع الصاخبين الصامتين من أهالي المدن والقرى شمالا وجنوبا ، أولئك الذين أصابوا الفهم أو أساءوا الفهم أو لم يفهموا شيئا . إنما الثورة في إبانها تعايش يومي متشابك ، أداء مباشر من مجموع هذه الأعراض ، ملحمة نوازع شعب بأسره ، على مختلف أحواله وهمومه واستجاباته للواقع .

الصورة التي عرفناها مجردة ، ما أشد تعقيدها !

ولنضرب إطارا - على سبيل المثال - يقطع ، من اللوحة الكبرى ، المساحة التي تحتلها شخصية « معروفة » كشخصية سلطان باشا . ولننظر إليها ملياً . رسمها أولا الشيخ محمد عبده في سطور وهاجة بالبلاغة والذكاء : « سلطان باشا لم يكن من أغبياء الأغنياء في هذه البلاد ، بل كان فيه شيء

من الفطنة يزينه الغنى وتعالى قيمته مظاهر الثروة ، كان يفهم ما يقال ، ويرضى السامع إذا قال . ولكن هيهات أن يكون له بصر بالعواقب أو علم بمصاير الانقلاب في الحكومات وتغير الأشكال عليها ، أو ما يصيب الأمم في مجارى الحوادث من تقدم وتقهقر أفادته مناصبه السابقة أيام إسماعيل باشا شهرة وعلو صيت . حافظ على مكانته في النفوس ببسطة في الكرم امتاز بها على أمثاله ، فكان يتأب منزله الأعيان والعلماء وأرباب المناصب ، وكان يجد في نفسه لهذا علواً على أقرانه . كان مثله مثل الكثير من الأعيان في استئصال يد رياض باشا فيما استأثر به من السلطة ، وفي استنكار تلك البدع التي جاء بها في وزارته خصوصاً إبطال السلطة الشخصية ، والأخذ على يد الأقوياء ، أن تطاول إلى استخدام الضعفاء برغم إرادتهم ، ووضع حدود يلزم الأعيان وأهل الثروة بالوقوف عندها في علائقهم مع غيرهم ، فكان ممن يألم لهذه القيود ويعدها من الضربات التي أصيبت بها البلاد على يد رياض باشا وشركائه . توسم الفرج والخروج من هذه المضايق والوصول إلى مقام تعلو فيه كلمته على كلمة مثل رياض باشا ، ويتمكن فيه من أن يعيد نفوذه الشخصى فيمن دونه من عامة أهل بلاده ، عندما لاحت له بؤادر الثورة ، ولع في عينه شرر الفتنة - عندما أحس أن عرابي يتلمس المعين على إنشاء مجلس النواب لوقاية روحه ومنصبه ظن وصدق ظنه أن عرابي لابد أن يصل إلى ما يريد يوماً ما ، فمن الحزم أن يتفق معه في البداية ، ليكون له النصيب الأشرف من الفائدة في النهاية ، فكان أول من مدَّ يده إليه ، ووثقه على التعاون في طلب مجلس الشورى وأخذ سلطان باشا يستترل بعض أعيان الوجه القبلى والبحرى في رأيه ، ويحثهم على الاجتماع لتأليف

وفد يطلب إلى رياض باشا ويلج عليه في الطلب أن يستصدر من الجنب الخديوى أمراً باستدعاء مجلس النواب ، وتحويله حق النظر في وضع قانون يضمن له البسطة في حقوقه حتى يكون كمجالس النيابات في أوربا ، ثم يكون ذلك دستوراً للبلاد تمضى عليه حكومتها ، فانصاع له بعض وعارضه آخرون ، ولم يتم له تأليف ذلك الوفد ، ولم ير من الحزم أن يتولى الطلب بنفسه من رياض باشا خشية الحية ، فانقلب إلى عرابي وحالفه على أن يجمع له أعيان القطر من الوجهين البحرى والقبلى وعلماءه على تعضيد طلبه متى انفصل رياض باشا ، ثم بارح سلطان باشا مدينة القاهرة ، وتوجه إلى المنيا في أواخر شهر رمضان سنة ١٢٩٨ وقت اشتداد الاضطراب وتلاطم القوى (أغسطس ١٨٨١) .

« كنت معروفاً بمناوأة الفتنة واستهجان ذلك الشعب العسكرى ، وتسوئة رأى الطالبين لتشكيل مجلس النواب على ذلك الوجه وبذلك الوسائل الحمقى ، وكنت أذهب لزيارة سلطان باشا أحيانا فأرى من لدن الباب عرابي وبعض رفقائه جالسين معه ورعوسهم بادية من النوافذ ، فإذا استأذنت للدخول وسمعوا اسمي أسرعوا بالفرار من محل الاستقبال العام إلى محل آخر ليختفوا ثم ينصرفوا »* .

هنا خليط من الكرم والوطنية والانتهازية ، مزاج من فطرة أهل الصعيد ومبادئ الديمقراطية الغربية ، وخلفية من سراديب مظلمة تلوذ بها ازدواجية العلاقات لا بين عرابي وسلطان فحسب ، بل بين كل منهما وبين إسماعيل ورياض والشيخ محمد عبده نفسه ...

هـ تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ ص ٢١٦ - ٢١٧ .

بداية لغز ظل يحير « القارئ » ، حتى وقع في محفوظات وزارة الخارجية البريطانية ذات يوم - في أثناء بحثه عن غير سلطان باشا - على وثيقة دامغة ، لا تحتمل التأويل . إنها مسودة برقية سرية أرسلها بالشفرة من الإسكندرية في ٢٤ أغسطس سنة ١٨٨٢ قنصل بريطانيا في مصر « سير إدوارد مالت » إلى قائد الحملة الإنجليزية التي أقبلت « سير جارنت وولزلى » يبلغه فيها : « يرغب الخديو في أن يُلحق بكم - بصفة مندوبين مدنيين - على باشا مبارك المعين وزيراً للاشغال العمومية ، وسلطان باشا رئيس مجلس شورى النواب . وستكون مهمتهما استمالة الأهالى حتماً يتقدم الزحف وإعطاء معلومات عن سلطة ومترلة الأشخاص الذين يأتون إليكم في ظل الإعلان (بيان عصيان عرابي) . وكلاهما رجل كبير الشأن والتأثير في البلاد ، وأرى أن هذا الاقتراح اقترح وجيه . فهل توافق على إرسالهما ؟ » [F.O. 141/160 N104]

ثم برقيتان بالشفرة كذلك من نفس القنصل الرهيب في ٢٨ أغسطس سنة ١٨٨٢ إلى « الأميرال سيمور » وإلى « نائب الأميرال سير فرانسيس سولوين » بوصيهما خيراً بسلطان باشا مندوب الخديوى ويرجو تيسير وصوله إلى الإسماعيلية بأسرع السبل . [Ibid., N118, 119]

ثم نص رسالة التوصية التي حملها سلطان بيده من « مالت » إلى « وولزلى » ، وهى أيضاً بتاريخ ١٨ أغسطس سنة ١٨٨٢ :

سوف يسلمك هذه الرسالة صاحب السعادة سلطان باشا رئيس مجلس شورى النواب ، الذى عينه جناب الخديوى مندوباً مدنياً ليصحب سعادتكم في زحف الجيش على القاهرة .

وإذا أوصى سعادتكُم بإيلاء سلطان باشا حميد مساعيكم ، لست بحاجة إلى إطالة الحديث عن خدماته أو تذكير سعادتكُم بما أبدى من الوطنية - بوصفه رئيس مجلس النواب - في مناصرة الخديوى .

وفي معية سعادته فريد باشا مدير الشرقية سابقاً ، وزكى بك أحد رؤساء تشريفات الخديوى ليقوم بالترجمة ، وستة سكرتيرين وستة قواسين »

[Ibid., N120]

شذرات متواترة ، تؤكد انشفاق سلطان باشا على الثورة الوطنية ، باسم الوطنية ! ولكن اللغز ما زال مستغلقاً ، فالموشرات التى تجمعت لا تتجاوز نهاية المطاف ونتائج سيرة مجهولة المقدمات .

وهذا ما بلبل خواطر المعاصرين من قبل ، برغم معاشتهم للوقائع . حسبنا أن نقراً ما كتبه فى تلك الأيام - وبالتحديد فى ٢٤ أبريل سنة ١٨٨٢ - طالب مصرى نكرة كان يدرس الطب فى جامعة مونبلييه بفرنسا ، واسمه « محمد توفيق » ، إلى عرابى باشا شخصياً :

« جهادية ناظرى سعادتلو أفندم حضرتلرى »

... قد دخلتنى بعض الريبة مما نشرته الجرايد الإفرنجية وسكتت عنه الجرايد العربية . ومع كون ما ذكر فى الجرايد المذكورة مما يوجب الريب ، إلا أنى لا أعترف احتمالاً أبداً ، فضلاً عن تصديقه . ولا يتصور عاقل ما نسب لحضرات النواب ولا سيما لسعادة سلطان باشا رئيس المجلس من انضمامه مع البدو لمضادة الهيئة الحالية التى لا هناء لها إلا مع إصلاح البلاد ورواج حال أهلها ، فإن المعلوم فى سعادته أنه مصرى التزعة ، حر الضمير ، محيط بكل

ما أَلَمَّ بالبلاد من الظلم والجور ، حتى إن سعادته لم ينبج من شر الحكومة السالفة التي كادت أن تغدربه ، بل غدرت بسعادته فعلا . ولو لم يكن لسعادته في جميل الأعمال وحسن الطوية ، وخلوص النية حالة كون سعادته من أعظم وجهاء الأمة شأنًا وقدرًا فلأن في غاية الاستغراب من ذكر ما نسب لسعادته خصوصاً ، ولبقية حضرات النواب عموماً . وأرجو من الله سبحانه وتعالى أن يهدي العموم لأقوم طريق ، ويوفق سعادتكُم لإجراء ما يكون فيه صالح الأمة المصرية ...

[دار الوثائق القومية - القاهرة : محافظ الثورة العرابية : ٨ - ٥٣ - د

- ٢ وثيقة ٥٥]

وفي الصفحات التالية - بعد انقضاء قرن - يشاطر جيل جديد من شباب مصر تلك الحيرة الملحة المؤثرة التي عبر عنها لزعيم الثورة زميلهم القديم المغترب ، الذي لم يدخل « التاريخ » .

١ . ل

القاهرة - جنيف

مايو ١٩٨١

سلطان أفندى

١ - تحقيق

سرعان ما أصبح المدرس الجديد - الأستاذ « فخرى » - أحب شخصية إلى قلوب التلاميذ في مدرسة « أحمد عرابى الثانوية » .

إنه فتى ألمع ، كان أول خريجى قسم التاريخ بكلية آداب القاهرة فى العام الماضى . وقد كافأته وزارة التربية والتعليم بتعيينه رأساً فى العاصمة لاسيما وهو يحرص على أن يظل متصلاً بجامعة ، حيث أخذ فى إعداد بحث لدرجة الماجستير عن « أصول الحركة الوطنية فى مصر الحديثة » .

حين ترى هذا الأستاذ الشاب فى الفناء مع بعض تلاميذ السنة الثالثة ، لا تكاد تميزه منهم : 'فهو أسمر طويل الشعر مثلهم ، مرح متدفق الحركة ، يحاورهم بالنكتة ويشاطرهم هوايتهم المفضلة - كرة القدم . أما فى « الحصص » ، فيرتجل الحديث إليهم ارتجال محاضر متمكن . بسحرهم بغزارة شرحه وحيوية إلقائه ، وتسرى فيهم حرارة شغفه بالمعرفة فتدفعهم إلى الاستزادة من المعلومات . وإذا هم يحيطونه بأسئلتهم عن الكثير من التفاصيل ، فلا يتحرج من الاستطراد ليرسم لهم صورة واقعية عن العصر الذى يتناوله .

هكذا تحولت مادة التاريخ الجافة إلى متعة حقيقية لدى تلاميذ الأستاذ
« فخرى »

واليوم فى ختام درسه الشائق عن الثورة العربية ، استعرض أهم الأسباب
التي أدت إلى هزيمة جيش الفلاحين ، الذين نهضوا لتحدى طغيان الحديوى .
وكان الحماس فى اختتم فى نفوس التلاميذ إلى حد جعلهم يرفضون فكرة فشل
تلك الثورة الشعبية . اكفهرت الوجوه وتوتر الجو . خطفت لحظات عصبية .
إنهم يحيلون أنظارهم المتوقدة بيت الأستاذ فوق منصته ، وبين صورة الزعيم
أحمد عرابى التي تتصدر الجدار من ورائه ، والتي اجتذبتهم فى تلك الآونة .
وكأنما انبعثت فيها الحياة فجأة ، كادوا جميعا يتكلمون بصوت واحد . إلا أنهم
صمتوا وعادوا إلى الإصغاء ، إذا رأوا زميلهم « عادل » الجالس فى الصف
الأول - وهو بالفعل أنجبهم وخير من يعبر عن رأيهم دائماً - يرفع يده طالباً
الكلمة من الأستاذ :

عادل : « الموضوع فيه نقطة غير واضحة ، ومحيرة جداً : التدخل
الاستعمارى ده شىء ثابت ، وغدر الحديوى بالثورة شىء مفروغ منه ، إنما كيف
نسب الخيانة للمصريين أنفسهم ، لأحسن الوطنيين ، ولسلطان باشا بالذات ؟
« سلطان » كان راجل خطير ، جاهد فى الحركة الوطنية لغاية ما أصبح رئيس
مجلس النواب . وكان يجمع أعضاء « الحزب » الوطنى « سراً فى بيته ويطالبهم
باغتيال الحديوى توفيق . .

الأستاذ - صحيح .

عادل : « إزاي بقى سلطان باشا يخون الثورة ؟ مش معقول ! تهمة الخيانة

دى لازم تهمة ملفقة ، تهمة أشاعتها الدعاية الإنجليزية فيما بعد لظعن وطنية المصريين في الصميم . المستعمر يتعمد تجريح الأبطال بقصد القضاء على المثل العليا الللى نادوا بيها ، وبث روح اليأس في الشعب . . «
الأستاذ - « على مهلك ! ماتبقاش عاطفي ! إحنا يهمننا في التاريخ دراسة الوقائع أولا . وخيانة سلطان باشا للأسف مسألة تؤيدها الوقائع . .
وينخطو الأستاذ نحو خريطة القطر المصرى المعلقة ، فيواصل شرحه وهو يشير إلى مواقع الدلتا التى يذكرها :

- . . « سلطان » ترك عرابى المتحصن في كفر الدوار ، وانضم للخديوى توفيق المحتفى في إسكندرية بالأسطول البريطانى . « سلطان » ضلل ضباط عرابى ، أوهمهم أنه « عاصى » ومغضوب عليه ، وأغراهم بالانحياز للدولة العثمانية . « سلطان » عرض خدماته سرا على الإنجليز .
- ياخبر !

- لما الإنجليز تأكدوا من قوة استحكامات عرابى في كفر الدوار ومن المعركة المفروضة عليهم إذا حاولوا دخول البلاد من جهة إسكندرية ، غيروا خططهم ، وتحركوا للشرق ، ونزلوا غدرا من قناة السويس مين كان في استقبالهم هناك ؟ سلطان باشا . سلطان راح بنفسه انتظر « الجنرال ولزلى » على البر ، وأرشد الجيش الإنجليزي في منطقة التل الكبير . وزى الهوا فتح لهم السكة بين الأهالى ودلّهم على الطريق إلى القاهرة . قائد جيش الاحتلال دخل القاهرة على يد سلطان باشا ويارشاده . . .

لا يتمالك الطلبة مشاعرهم . تندّ عنهم صيحات استنكار .

الأستاذ - أنتم مغرورين في « سلطان » زى ما اتغر فيه عرايى . وياريت
عرايى فطن إلى شخصية سلطان الحقيقية - شخصيته المزدوجة - كان احترس
منه في الوقت المناسب . يمكن كانت الثورة تنجح في الداخل . .
عادل - أربع كعب موجودة في مكتبة المدرسة عن الثورة العرابية قريبهم
بالكلمة ، وما فهمتش سر خيانة سلطان باشا دى . . ولا أزال غير مقتنع بأنها
صحيحة . .

الأستاذ - وبابن يا عادل إن بعض زملاءك برضه غير مقتنعين . لازم
تصوروا كيف تفاعلت شخصية « سلطان » مع ظروف العصر . إنما دى حكاية
طويلة . (ينظر إلى ساعته) خسارة ! الجرس ح يضرب . ما فيش وقت .
أصوات - نيجى بعد الظهر مخصوص !

الأستاذ - أنا عندى فكرة أحسن : بكرة الجمعة ح نقضى النهار فى الجيزة .
الى جاي رحلة الهرم يرفع إيده .

بالإجماع يرفع التلاميذ أيديهم .

الأستاذ - تبقى فرصتنا أوسع ، علشان تسمعوا القصة بالتفصيل . ومش
ذنبيكم فى الواقع أنكم ماتعرفوش سيرة سلطان باشا ، لأنها لغاية النهاردة
مادخلتش فى الكتب المقررة عليكم .

ويدق الجرس ، فيجمع أستاذ التاريخ أوراقه ويتجه إلى باب « الفصل »
يلحق به طالب آخر ، ويحيط بهما الباقون .

- وليه ما كتبوهاش ؟

- علشان فيها بعض المواقف المخرجة أخلاقيا . والحاجات الخارجة دى يجوز

تؤثر على ضعف النفوس .

— إنما احنا عايزين نسمعها بالظبط .

تلميذ آخر— بالكامل !

الأستاذ— إن شاء الله . انتو رجاله ، ومش ح أخى عليكم حاجة .

ويهتف تلميذ مهرج : يعيش الأستاذ فخري !

٢ - أول الحيط

عند سفح الهرم الأكبر يتزل التلاميذ من سيارة الرحلة : رؤوس مشرّبة ، وعيون مستبشرة ترمق الصرح الشاهق . وبعد أن يمرحوا بين الأهرام وأبى الهول تلتف حلقتهم حول الأستاذ « فخرى » فى إطار تلك الصخور القديمة ، يوحى تجمعهم بالتثام صورة الشخصية المصرية عبر القرون ، برغم تقلب الدهر . وعلى كل الوجوه آيات التطلع إلى الحديث المرتقب لاستكشاف صفحة مجهولة من تاريخ الأمس القريب .

الأستاذ فخرى - شافين ؟ كل حجر فى الهرم بيتخذ من الحجر اللى تحته قاعدة يرتكز عليها . وقصة كفاح أى شعب ، جيل بعد جيل ، عبارة عن هرم مرصوص حجر فوق حجر . كل حدث هو نتيجة لحدث سبقه ، وفى نفس الوقت مقدمة للحدث التالى ، وهكذا . . . والثورة العربية - زى ما قلت لكم امبارح - مش أول ثورة قننا بيها ضد استبداد الأسرة الحاكمة الصعايدة ثاروا بدرى ضد محمد على فى مدينة « دراو » . الكلام ده كان سنة ١٨٢٤ . إنما الفلاحين ما عرفوش ينظموا صفوفهم تحت قيادة ذكية موحدة فتشتوا . بعدين

ثاروا ثورة أكبر ضد « سعيد باشا » في منطقة المنيا ، بزغامة راجل مجهول
النهارده ، كان شيخ قبائل البدو المتناثرة في الصحراء - الى احنا عليها دى
من الفيوم للشلال .

عادل - الى اسمه « باقور الحنفى » ؟

الأستاذ - عظيم يا عادل ! أنت بتقرا كثير . . اسمه « باقور الحنفى » . وطبعا
عارفين إن سلطان باشا منياوى . أيامها ماكانش باشا كان لسه شاب صغير
متخرج من الكتاب . واللى كان يعرف يقرا ويكتب ويحسب فى الوقت ده كان
على طول يتوظف فى الإدارة ، ويبقى « فلان أفندى » . وحركة « باقور
الحنفى » - لولا سلطان أفندى - كانت تتحول إلى ثورة شعبية متكاملة تقلب
إسماعيل باشا وتغير التاريخ . .

استطلاع التلاميذ يشدد

- . . . واللى عمله « سلطان أفندى » سراً فى « باقور الحنفى » ح عمله
« سلطان باشا » فى عراقى . الخيانة - ح تشوفوا - لها جذور . وعراقى كان قلبه
طيب ، فوثق بسلطان ، ورحب بيه ، خصوصاً وسلطان راجل من الأعيان
يملك آلاف الأفدنة فى مديرية المنيا ، وبثروته ونفوذه وذكائه كان يمثل سند
قوى للثورة . فى الشرقية بتاعة عراقى من المنيا بتاعة سلطان ؟ عراقى قطعاً
ماكانش يعرف حكاية الثروة والأطيان دى الى هبطت مرة واحدة على
« سلطان أفندى » فى شبابه . يعنى أصلها منين ؟ تخيلوا موظف صغير بسيط فى
« الدائرة السنية » . . .

وينطلق الأستاذ « فخرى » في عرض الأحداث ، ووصف البيئة ، وتحليل التطور الذى مرت به شخصية « سلطان » فتدب الحياة فى جانب مجهول من ذلك العصر ، وترتسم فى مخيلة التلاميذ المنصتين سلسلة من الصور المتلاحقة المؤثرة .

٣- كاتب فى « الدائرة السنية »

« سلطان أفندى » - وهو فى ذكى النظرات يرتدى حلة معروكة بالية ، يصعد الدرجات الحجرية العريضة التى يتألف منها السلم الخارجى لبناء حكومى صغير من طابق واحد ، ثم يدخل من بابه العمومى الذى يحمل - على مصراعه غير المفتوح - لوحة نحاسية : « الدائرة السنية - مديرية المنيا » يجتاز ردهة يدلف منها إلى مكتبه : غرفة ضيقة ، بها منضدة كالحقة ، عليها أوراق ومحفرة ، يجلس إزاءها على كرسى خشبى غير وثير .

يهرع إليه الفراش « عبد الصبور » - وهو عجوز عميق التجاعيد يبدو الفقر على ملاهسه الرثة - فيحييه باحترام ، وكأن هذا الكاتب من عليّة القوم وأكبرهم مترلة وجاها ! فيشكو « سلطان أفندى » تواضع حاله للفراش فى لهجة تشوبها مرارة الغيرة من رغد رؤسائه - الشراكسة والأتراك - الذين ينعمون بامتيازات عظيمة دون أن يبذلوا أى مجهود فى العمل ، العمل الذى يتكدر بالتالى على عاتقه .

- ربنا يوسعها عليك ! مافيش أحسن من السترياسلطان أفندى ؟ ويبعدك

عن الحرام !

وتقع عليه العبارة الأخيرة - برغم أنها عادية مبتذلة - وقع الصاعقة يرتبك ، تتغير سحته ، إنه يظن أن الفراش يشير بذلك إلى صفقة سرية عقدها أخيرا مع بعض تجار الحشيش ، لتسهيل تهريبه لهم عبر مديرية المنيا تحت ستار وظيفته الرسمية ، التي تعفيه من الشبهات . تنقلب شكوى الزمان ولهجة التعاطف مع الفراش الشيخ إلى نفي غامض ، فانتهاز دفاعي ، وتهديد صارم . يتراجع الفراش مذعورا . ثم يعود محاولا استرضاء «الأفندى» ، فيميل عليه وينبئه بخبر سار :
- أنا عندي بشرة خير لسعادتك : « زيدان » قواص الباشا المدير فات بدرى هنا سأل عليك .

- عاوز إيه ؟

- قال الباشا المدير طالبك تقابله .

- يا خير اسود !

- اسود ليه كفى الله الشر ! دانا فهمت إن قصده يشغلك في مكتبه . ربنا يتمم الترقية . وتبقى تفتكرنا هناك ياسلطان أفندى !
- انت فهمت كده ؟ . . ما جابش سيرة حاجة ثانية ؟
- وأنا لحقت آخذ وأدى معاه ؟ ده كان مستعجل . وقال الباشا ذات نفسه مستنظرك في الديوان قبل الضهر .

- قبل الضهر . . . طيب خليك انت هنا . أنا رايح مشوار صغير وراجع لك بسرعة . الى يسأل عنى خليه يستنى عندك .
وقبل أن يتم كلامه كان قد انصرف يعدو هابطا درجات السلم وفي الفناء يستدير إلى حيث بغلة مسرّجة . يمتطيها ، ويركض إلى خارج البلدة .

٤ - قاع البحر الأخضر

حقل شاسع من قصب السكر الكثيف ، تضطرب ذوائب أعواده في
الريح ، فتسفر أمواجه أحيانا عن جذع « سلطان أفندى » ، مندفعا في عناء .
ذراعه محمومتان تلاطمان الحضرة التى تغمره . قرب النخلة التى يتجه صوبها في
أقصى الحقل غربا ، يستخفى رجل ملثم ، لا يكاد يلمح القادم حتى يعمر بندقيته
ويتأهب لإطلاقها . غير أنه يتوقف .

— مش تنبهنا ياسلطان أفندى بالإشارة ؟ دانا كنت ح اطخ فيك لولا عرفت
بدلتك !

— ما فيش وقت يا « عبود » ! شغلتنا انكشفت . المدير أخذ خبر وطالبى .
وكلنا ح نروح فى داهية لو أى واحد من الرجالة اتمسك واتكلم . خليفهم يسيبوا
الزناويل فى مطرحها ويزوغوا . ما حدش يهوب ناحيتها خالص . ومها يحصل
ما فيش حد يجيب اسمى على لسانه ، وإلا طيينا كلنا !

— ما تتخضش كده ياسلطان أفندى ! ودا كلام ؟ الزناويل دى مطلوب فيها
خمسميت محبوب . نتركها للبوليس يلحسها ؟ ونصيبك انت الى اشترطته

علينا ، تفرط فيه يا شاطر؟ والا كفاية عليك المقدم : ظنك الرجالة ح
تسييهولك؟

- دانا معذور في الفلوس . . .

- اثبت بقى يابطل !

والعمل إيه؟

- إن كان ع المدير بتاعك ، ده بَجم تركى . أنا كنت فاكر حد تانى

ماتعرفش تحاوره بصنعة فهلوة؟ ماتعرفش تلف بيه؟ . . واحنا من هنا لبكره

الفجر نتصرف . أمال أفندى ازاي؟

- أصل دى أول مرة ياعبود . بس تيجى سليمة ، واحنا نستعدل !

- (ساخرا) شد لنا حيلك ياسلطان أفندى !

٥ - بصاص

يهش قواص المدير وييش لسلطان افندى ، المتوتر المهموم . ويدخله على « خورشيد باشا » .

من شدة بلبلة سلطان ، تكاد تفلت منه اعترافات غير مباشرة بتواطؤه مع عصابة المهربين . ولكن « خورشيد باشا » التركى يعوزه الذكاء من ناحية ، ولا يحسن . من ناحية أخرى - فهم اللغة العربية التى يتكلمها بركاكة مضحكة .

يتنفس سلطان الصعداء ، عندما يتضح له أخيرا الغرض الذى من أجله استدعاه المدير :

لقد أتى بالأمس إلى المديرية رسول خاص من طرف الخديوى إسماعيل ليتحقق من شائعات مزعجة بلغت أسماع سموه . يقال إن الشيخ « باهور الحنفى » قد رجع إلى الصعيد ، بعد غييبته الطويلة فى تونس . ولو صحت هذه الأنباء لكانت المفاجأة وبيلة العواقب على الخديوى . منذ اثنتى عشرة سنة استقر فى الأذهان أن باهور - بعد أن بطش سعيد باشا بأعوانه - قد هاجر نهائيا من

مصر ، وأن معظم القبائل الموالية له قد تبعته إلى أقاصى الصحراء الليبية . فما معنى عودة « شيخ العرب » الآن ، وعودته سرّاً ؟ لابد أنه أزمع الثأر . وهل ينسى الشيخ باقور غدر سعيد باشا ؟ هل ينسى وحشية زبانيته ليلة دهم ضباط « المفروزة » بيت الغوازي ببلدة الروضة ، وقد اجتمع فيه البدو مع خيرة شباب الفلاحين لكى يدبروا - تحت ستار اللهو - خطتهم المشتركة للقضاء على الوالى ؟ أطبق عليهم أولئك العسكريون العتاة من كل المنافذ ، ونقلوهم فوراً إلى ضفة النيل الشرقية . وهناك ، فى الفجر ، قبل أن تتاح لمخلوق أية محاولة فى سبيل إنقاذهم ، ربطوا الواحد تلو الآخر إلى فوهة مدفع أطلقوه . تناثرت مع البارود الملتهب أشلاء الرجال ، صعد الرعب أهل الصعيد ، واضطر البدو إلى الاختفاء فوراً .

هكذا يكون الردع ! وبلهجة المتشدد يطنب المدير التركى فى إعجابه بما كان عليه « جتتملكان سعيد باشا » من العنف والجبروت . والحق أن قصة ذلك الإرهاب القديم لم تكن تعنى « سلطان أفندى » شخصياً . لقد سمعها ضمن ما يرويه أهل الجيل السابق من حكايات كالأساطير . أما هو فلا يفكر فى الماضى ، بل يفكر فى المستقبل . والمستقبل بالنسبة إليه هو الإثراء السريع عن طريق صفقات التهريب التى جنح إليها ، ليلبغ مثل ذلك الترف الذى يتمرغ فيه الباشوات .

ولكن المدير يعتقد أن « سلطان أفندى » هو خير من يأتية بالخبر اليقين عن « باقور » دون أن يلفت الأنظار . ذلك أن خاله « فتح الله » هو شيخ البلد فى الروضة ، التى يقال إن باقور قد ظهر فيها أخيراً .

وإزاء فتور «سلطان أفندي» يظن المدير أنه يتجاهل ويتمنع طمعا في مكافأة أورشوة. فيساويه : يمزج الوعود بالوعيد ، والتلميح بالتصريح . وسرعان ما يندمج «سلطان» في المزايدة ويتعهد بأن يتجسس - خلال اتصالات خاله في الروضة - على باقور الحنفي «ألد أعداء الخديوى» . ويصدر المدير تعليمات للأمور الروضة بتسهيل مهمته . ها هم أولاء تحت تصرفه أيضا ، لنفس الغرض ، «غزولى» و«شهنذر» و«عرفان» الذين يقدمهم إليه خورشيد باشا بوصفهم «أحسن بصاصين فى المحروسة» .

٦ - جولة الشيخ فتح الله

« سلطان أفندى » ، فى الطريق الزراعى إلى الروضة ، متردد موزع الخاطر . إنه يكره السادة الأتراك لعجرفتهم وظلمهم واستغلالهم إياه ، ولكن آمال الغنيمة والمكافأة ، وأحلام العظمة والسطوة ، تتراقص أمام عينيه ، وتدفعه إلى انتهاز الفرصة . فليحدث خاله على كل حال ، ويقابل المأمور ، وليأخذ أوفى المعلومات عن باقور ، لا ليذيعها فوراً ، وإنما ليحتفظ بها لنفسه لعلها تنفعه مستقبلاً فى توسيع شبكة التهريب . ومن يدرى كيف ستجرى الأمور ؟ لابد له من أن يكون على بينة من الواقع حوله ، حتى يستطيع أن يشق سبيله إلى القمة بإلقاء الكلمة المناسبة فى الوقت المناسب .

يقصد فى بلدة الروضة دوار خاله الشيخ فتح الله ، فيعلم أنه خرج إلى جولة فى « الغيط » . لا يتظره بل يتعجل لقاءه يخترق الحقول المجاورة لبيوت الفلاحين الطينية الواطئة المتلاحقة ، ويمعن فى الأرض المزروعة نحو الغرب . على الأرض هنا وهناك ، انكب رجال سمر مهزولون يراهم من بعيد - وقد انحنت ظهورهم - كأنهم حشرات سوداء تدب ، أو دواجن تنبش وتنقر .

بش العبيد المسخرين ! يقترب من بعضهم فإذا وجه بشرى يرتفع ، ويتعرفه ،
ويحييه بابتسامة إنسانية مؤثرة ، ويرحب بمقدمه إلى « الروضة » . .
أخيرا يلح خاله بقامته الطويلة ومنكبيه العريضتين مولياً ظهره للطريق ،
وقد أخذ يخاطب شخصا فى حفرة . إنها فلاحه تشد الشادوف وهى تلهث .
الحقل تشقق من الجفاف . وفى الظل الشحيح تحت الشجيرات الضامرة بجوار
الشادوف أربعة أطفال تكسوهم الأسمال . أصغرهم متنفخ البطن بادی الكساح
مستسلم لأسراب من الذباب ضاربة طنانة .

سمع سلطان - وهو يدنو من خاله - طرفا من الحديث :
- ونجيب للميرى منين ؟ مابقاش حيلتنا حاجة واصل ! الكردان بعته
عمنول ، ولطف حقه المأمور علشان يطلع « عوض » من الحبس . والجاموسة -
الى عيالى دول ماداقوش لبنها - خدوها الديانة ، الله مايبارك لهم فيها !
- ورأيه إيه « عوض » ؟
- كلمته بعيد عنك من طاقة السجن . قال : « الأمر لله يا وليه ، بس انتى
ماتسيبيش الزرع ينشف شدى الشادوف على قد حيلك ! » أعمل إيه ؟ مكتوب
علينا !

- الحال ده لازم يتغير !
- أنا فى عرضك يا شيخ فتح الله تسترجى المأمور ! مابقاش عندى حتى ولا
فرخة أروح له بيها .
- وفى شرع مين يا « حليلة » الى ييموت م الجوع يدى لقمته للشبعان ؟
- يلطف بعيده !

- ربنا كريم ! واللى يقدر فى عليه أعمله .
- يخليك لينا ، وينصرك عليهم !
- ويستدير الشيخ فتح الله راجعاً للبلدة كى يتشفع لدى المأمور لإطلاق سراح « عوض » فيلتقى وجهها لوجه بسلطان . يستفسر فى حذب عما أتى به ، فيجيبه سلطان منافقا :
- أصلى مشتاق عليك ياخالى .
- وبعدين تسبب شغلك من الصبح علشان مشتاق تشوف خالك ؟ انت لازم تستحرص ياسلطان . ما تخليش حد من التراكوه يقول لك كلمة فارغة !
- فشر ! دا الباشا المدير ذات نفسه مكلفنى بمشوار .
- انتى بقى جاي تقابل المأمور ؟ ده سأل عليك عشية .
- أصل الباشا المدير كلمه عنى . لكن أنا قلت أفوت عليك فى الأول .
- جييت فى وقتك ، أنا رايح أسترجاه لعوض .
- بس ما تستعجلش كده ، خلينا ناخذ راحتنا فى الكلام . .

٧ - لغز باقور الحنفى

يستدرج « سلطان » خاله - وهما سائران - إلى الحديث عن « باقور » الحنفى ، محاولا بذلك أن يستقى أقصى ما يمكن من المعلومات ، ويتكلم الشيخ فتح الله عن الحاضر والمستقبل بتحفظ ، ولا يفيض إلا فى ذكر الماضى . وهكذا لا يظفر « سلطان » المستطلع بكل ما يبتغيه من أنباء ، غير أن صورة الأحداث القديمة تكتمل فى ذهنه وتتضح ، ولا بأس من مراجعة الوقائع السالفة ، فهى الأساس الذى سيبنى عليه مغامرته .

مع عبارات خاله العارف بالقبائل والعصبيات ترتسم فى مخيلته قصة اختفاء « باقور » منذ اثنى عشر عاماً ، على أثر تنكيل سعيد باشا برجاله ، يتصور « سلطان » كيف توارت خيام البدو المضروبة على حافة الوادى المزروع ، كيف طوتها عن الأبصار قوافل متلاحقة ، ذابت بين كثبان الصحراء . عندئذ ظنت الحكومة أن الخطر قد انجلى ، وأن الأمن قد استتب للوالى . ولكن « سوق السبت » التى تجمع أهل الروضة والقرى المجاورة ، لم تلبث أن شهدت ، أسبوعاً تلو أسبوع ، نقرا من البدو يقبلون مبكرين على إبل فائقة السرعة ثم

ينطلقون قبيل المغرب عائدين من حيث أتوا ، في سحابة رملية كثيفة تحجبهم عن الأنظار ، كانوا في كل مرة في أثناء البيع والشراء يتبادلون الأخبار مع الفلاحين .

وفي ظل الاطمئنان الجديد ، بزغت ذات يوم من ضباب الفجر في الشمال ، مع أشعة الشروق البرتقالية ، بين زرقة البحر وصفرة الرمال المترامية ، صفوف جراحة من الإيل ، تسعى نحو أرض النيل . كانت تحمل المتاع والنساء والأطفال ، وتحرسها جماعات من الفرسان متدثرين بأحرمتهم البيضاء ، وقد علقوا البنادق على أكتافهم . إنك لا تستطيع أن تأخذ البدوى على غرة ، فإن يده ، من تحت حرامه ، تقبض دائماً على طينجته . والصحراء تعلّم المرء أن يدرك ما يجري خلفه . إذا كان ثمة متعقب ، أبطأ الفرسان سيرهم ، وأفسحوا الطريق ، ولزموا جانبا ، حتى يتعرفوا الطاريء عليهم . حياة مثيرة ، تتلخص في الصمت والتحفز والحركة .

إذن لقد عاد البدو إلى الوادي ، دون هدنة رسمية ، تدفعهم رغبتهم في الاستقرار والاشتغال بشيء من الزراعة بعد سنوات التشرّد .

سلطان : على خيرة الله . والشيخ « باقور » ياترى رجوع ؟

فتح الله : الله أعلم .

سلطان : هو أنا غريب يا خالي لما تخفى عني ؟ ما فيش حاجة تحصل نواحي الروضة وتخفى عليك .

فتح الله : بلاش الموضوع ده دلوقت ياسلطان . احنا قرب المركز ، والحيطان لها ودان .

حسنية

ويدخلان مبنى المركز ، فى ركن من قاعة خاوية متربة ، منضدة ابتعد المأمور بكرسيه عنها ، وجلس يدخن الشيثة ، وقد تربع بإحدى ساقيه على المقعد بينما تدلت ساقه الأخرى وحطت على البلاط . وعلى كرسي تململ غانية مكحلة العينين متبرجة تدعى « حسنية » وهو يستمتع بمخالستها نظرات شهوانية ، ومجاذبتها أطراف حديث يخلط فيه الغزل الماجن بالتهديد الغليظ . ويظل يلهو بمعابثها عن تأوهات الفلاح « عوض » ، هذا الذى طُرح أرضا فى ركن بعيد ، وشد أحد الخفراء قدميه فى الفلقة ، وانهاى عليها آخر بالعصا ، ووقف ثالث يعد فى آلية صارمة وبصوت مرتفع كل ضربة يوقعها الضارب العاقى على اللحم الآدمى .

لا يكاد المأمور يعتدل فى جلسته أو يحتشم ، حين يقبل عليه « الشيخ فتح الله » . ولكنه إذ يلمح « سلطان أفندى » داخلا وراءه ، ينهض ويحييه ، ويجلس الجميع ، دون أن ينقطع توقيع العصا وأنين الفلاح . الشيخ فتح الله يستنكر تعذيب رب أسرة برىء ، بيد أن المأمور لا يستمع لحجج الإنسانية

والعدالة ، وما أقولها على لسان شيخ البلد الجليل ! إنما هو يعفو عن « الخرسيس عوض » لمجرد الاحتفاء بقدم سلطان أفندى من طرف الباشا المدير .
وينصرف الشيخ فتح الله مع عوض ليضمن إفلاته من قبضة العسكر المرتشين الذين قد يحجزونه تعسفا .

لا يدري سلطان أفندى أهو سعيد لأنه أنصف مظلوما ، أم لأنه أصبح موضع احترام المأمور وتملقه . إنه يزداد في هذا المجلس اعتدادا بنفسه ، ويطلق لطموحه العنان .

ولماذا لا يقفز إلى قمة المجد والثراء قفزا بتسليم « باقور » للخديوى ؟ إن أمامه الآن أكثر من مصدر للتوصل إلى ذلك الباقور . فهذه الغانية التى سبق أن رآها منذ بضعة أسابيع تحبى بغنائها ورقصها عرسا دُعى إليه ، فتاق إلى اتخاذها خلية له ، ولكنها صدته لفقره ، قد جاءت اليوم بخبر هام . جاءت منفعة تشكو وتستعدى السلطات . جاءت تصب جام سخطها وغيبتها المحتمدة على الشيخ باقور نفسه . فقد بلغها هذا الصباح أن الرجل عقد قرانه على « زنوبة » الفلاحنة الحسنة ، أخت داود صاحب « العزة الغريبة » ، على حين كانت ترمى - وهى الغانية الخبيرة باستهواء الذكور - إلى اصطفاائه خليلا فحليلا ، متوهمة أنه قد وقع فى شراكها ليلة حضر متنكرا إلى « بيت الغوازي » لملاقاة بعض التجار الغرياء .

سلطان : يعنى ماتحطيش عينك إلا على شيخ العرب ؟
حسنية : فشر ! ده بيت « الست بنبة » مفتوح على حسى أنا ! من آخر الدنيا الأعيان بتيجى الروضة لمن ؟

سلطان : [بابتسامة متخابثة] لست الحسن . . والدلال !
حسنية : أهو اتعدل كده يادى الأفندى !
المأمور : وبعدين يا حسنية هانم ؟ انتى ما تعرفيش سلطان أفندى والا إيه ؟
حسنية : يا حسرة !
المأمور - [يقاطعها] عيب ! ده سلطان أفندى صاحب الباشا المدير .
وغرضه كمان يجمعك على شيخ العرب .
حسنية : وهوح يروح عى فين ؟ خليه يكتب كتابه ! قال « زنوبة » قال !
دى تعرف تعمل له إيه ؟ باقورة ده سيد الرجالة ، وما يلزمه إلا ست الجمالات !
يا ويلك يا فلاحه يا بنت الفلاح لما ادخل عليكى ضرة وألّوعك عليه ! وحياة
عينيك الزُّرُق يا بيه يا آخده منها ياتأخدوه !
المأمور : احنا مستعدين .
سلطان : ناخذك وناخده !
حسنية : نعم يا ادلعدى ؟ ؟
سلطان : بس حلمك علينا ياست الحسن والدلال [يميل عليها ويهمس فى
أذنها بكلام غير واضح] .
حسنية : الليلة ؟ . . قال ماترعلوا ع اللى رايح قبل ما تشوفوا اللى
جاي ! . . خلّيتكم بعافية !
وبعد انصرافها يتداول سلطان مع المأمور ، يحصران المصادر التى يمكن أن
تؤدى إلى اعتقال « باقور » . وهى الآن ثلاثة : داود وعزبته ، حسنية وبيت
الغوازى ، ثم الشيخ فتح الله .

- سيب لى خالى أنا أُنْفَاهم معاه .
- دانا ماسييتش الشيخ فتح الله إلا عاشان خاطرك ياسلطان أفندى لأنه بلغنى أنه شريك « باقور » فى الزراعة ، لكن مارضييتش أعمل معاه شغل الميرى .
- عملت طيب ! ده خالى مايحبش أبدا بشغل الميرى . بالعنف مش ح تاخذ منه حق ولا باطل . خليه علىّ أنا وريّج نفسك من ناحيته .
- يتفقان على ذلك . ويخططان أن يستطلع كل منهما المصدرين الآخرين يستطلعهما المأمور بوسائل السلطة الرسمية ، وسلطان بعلاقاته الخاصة ، على أن تظل تحرياتهما طى الكتمان .

٩ - الأحلام فى بيت الغوازى

تضاعفت نشوة « سلطان أفندى » وهو يسترسل الآن فى أحلامه ، مستسلماً من ناحية لإغراء العظمة والسيطرة بعد جلوسه إلى « البيك المأمور » والباشا المدير » ، ومن ناحية أخرى لإغراء الجنس والمجون بعد أن وجد « حسنية » النافرة فى متناول يديه . إنه يستشعر أن مستقبلاً من الملذات المحرمة - أى أشهى الملذات - سيفتح أمامه ، إذا واصل تعقب « باقور الحنفى » . ويالها من فرصة ذهبية تتيج له اليوم بحجر واحد أن يصيب عصفرين : جاه الرفعة الاجتماعية وهذه الغانية البضة الملساء ، التى زادها فتنة فى نظره استعصاؤها عليه بالأمس . ويطغى هذا الإغراء المزدوج على ضميره . إنه فى قرارة نفسه معجب بشهامة خاله الشيخ فتح لله ، الذى يقود فى الخفاء حركة المقاومة بين الفلاحين ويوقظهم من سبات التوكل والسلبية . ولكن ماقيمة هذه الحركة فى الواقع المباشر؟ هيهات أن ترحز عرش الخديوى المستبد ! أما الاقتراب من الخديوى بتأدية خدمة كبرى له - مثل اعتقال « باقور » - فقد يكون وسيلة أجدى لإصلاح فساد الحكم ، وذلك بمساومة الخديوى نفسه نظير منفعته ، وإملاء

بعض الشروط عليه . ولماذا يسد «سلطان» - بتخرج أخلاقى عقيم - هذا الطريق الذى يفضى به رأساً ، أى بواحد من أبناء البلد ، إلى منزلة عليا يستطيع أن يستعلها بعد ذلك فى إسماع كلمة الفلاحين ، وفرصة إرادتهم على الحاكم ؟ ... هكذا يبرر - لنفسه المنقسمة - خسة الوسيلة بنبل الغاية .

لقد بدأ بحسنية التى يجتذبه سحرها . أما خاله ، فلا حاجة عاجلة إلى إضاعة الوقت الثمين معه ، وليس بيت الغوازى بعيداً . إنه قائم بطاقيه على شاطئ النيل ، حيث يتركز نشاط البلدة فى شارع واحد طويل ، أقصاه شمالاً معمل السكر بمدخنة الضخمة المرتفعة ، وأقصاه جنوباً ضريح الشيخ إبراهيم ذو القبة الصغيرة البيضاء . ألا تنقضى حياة الناس هنا بين هذا القطب المادى الكبير وذلك القطب الروحى المتواضع ؟

لا يتطلع «سلطان أفندى» إلى البنات اللواتى يحملن «البلايص» ليملأنها من النهر . ولا يلتفت إلى هاتين المرأتين الواقفتين على باب الدار سافرتين ، فى ثوبين زاهيين ، وقد التصق برأس إحداهما سعر قصير تلمع عليه طبقة من معجون دهنى ، بينما اصطبغ شعر الأخرى بلون الحناء . إنه يدخل بخطى الواثق من قطف ثمرة يعرفها ، ثمرة ناضجة أصبحت دانية . وتنقضى الحلاوة التى يتمثلها فى تلك الفاكهة المنشودة على مابقى من تروده . بل توقد فيه الغريزة - وهو يتقدم نحو حسنية - شعلة من الذكاء ، فيخاطبها بمنطق الساعة ، ويضرب على أوتارها الحساسة .

مرحى ! لقد تجاوبت معه أخيراً . تجاوب طموحها مع طموحه . إنه طموح

الأذلاء الذين يريدون أن يثأروا لكرامتهم الممتهنة ، ولكن بعد أن اهتز مفهوم الكرامة عندهم خلال الجو الفاسد المخيم عليهم . هذه امرأة فقيرة المنبت ، تفتق صباها البائس عن فتاة كاعب خالية الحسن ، فازدهاها جلالها ، وخيل إليها أنها بمفاتنها تستطيع أن تغير مصيرها ، أن تفلت من قبضة الحرمان ، وأن تصل إلى أنعم العيش وأبهجه . وذلك ما قادها إلى احتراف الرقص والغناء على يد « الست بنبة » التي أكدت لها - لكي تضمها إلى فرقها - أن الظهور في بيت الغوازي هو أقصر سبيل إلى اصطیاد « أجعص » الأعيان . غير أنها منذ سنوات تدور في حلقة مفرغة . الأعيان الذين يتهافون عليها وقد ينفحونها بمال كثير يحجمون عن الاقتران بها شرعاً ، لكلا يفقدوا مكانتهم الاجتماعية . وقد ضاقت ذرعاً بالوعود التي أغدقها عليها نفر من عظماء الإقليم دون أن ينجز بعضها واحد منهم . لم يعد الآن في قلبها إلا الحقد عليهم . وبلغ سخطها ذروته حينما أتاها نبأ زواج « باقور » بالفلاحة « زنوبة » . والحق أنها كانت ساذجة غريبة ، تتابع حلمها الخاص وتنسى حقيقة وضعها ، يوم تخيلت أن الشيخ باقور الحنفي أصبح متيماً بها .

ومهما يكن من تطلعها إلى باقور ، فمن باب هذا التناقض يتسلل «سلطان أفندي» إلى قلبها . يشرح لها أن « باقور » قد خدعها ، فقد كان يضمم الاقتران بفلاحة ، لكي يوثق عرى التحالف الذي نشأ بين البدو والفلاحين ضد الخديوى - عدوهم المشترك . ويحاول أن يحتل هو مكان باقور الشاغر ، بالمبالغة في التفاخر والاستعلاء . ألم يكن أمامها موضع احترام المأمور؟ أليس « دائماً » مع المدير في ديوانه بالمنيا ؟ « خورشيد باشا » الذي أرسل

الخدوي إلى رسولا شخصياً ! إنه هو « سلطان » - وفي اسمه وعد من القدر بالسيادة والمجد - هو الذي تلجأ إليه الحكومة في أخطر الأمور . ولقد أصبح في يده مصير « باقور » نفسه ! أجل ، إن هذا الفتى أقوى من الرجل الذي تفتقده وما أروعه إذ يتقم لها منه !

بهذا كله راود سلطان أفندي « حسنية » ، فباتت خليلته منذ تلك الليلة . لقد كانت بالأمس غايته ، وها هي ذى الآن وسيلته إلى غايات أبعد إنه لا يحبها ، بل يشفى نفسه منها ، ويستغلها . والحب إثار وإعزاز وتضحية ، أما « سلطان أفندي » فلا يضحى بشيء من أجل « حسنية » . يؤجل - وهو في الواقع يرفض - أن تقيم معه في المنيا ، ولو في منزل تشتريه فوراً بما لها . ويلج في إقناعها بالبقاء حيث هي لأن وجودها في الروضة لازم للتجسس على « باقور » . ترضى « حسنية » في سداجة وثقة . وتعجلا لما تصبو إليه من الاستقرار مع « سلطان » ، تبذل كل مافي وسعها لإرشاده إلى « باقور » والغيرة تصور لها « باقور » مستلقياً في أحضان « زنوبة » ، فما على « سلطان أفندي » إلا أن يهاجم « العزبة الغربية » بقوة عظيمة من الشرطة أو من الجيش ! هي تعتقد - كما ألقى في روعها - أنه يملك هذا النفوذ . ولكنها تحذره من تعريض حياته للخطر ، إذ أن « داود » - سيد العزبة - رجل محبوب جداً بين الفلاحين . ويقال إنه يوزع عليهم الملح بلا مقابل ، نكاية في الحكومة التي فرضت على الملح ضريبة جديدة .

- و« داود ييجيب » الملح منين ؟ .

- أنا عارفة ؟

- ده ممنوع على الأهالى يتاجروا فيه الحكومة محتكراه فى الشئون . علشان
كل اللى يستهلك ملح يكع الضريبة . والا الخديوى يدفع ديونه لأوربا ازاي ؟
- وأنا اللى ح أقول لك ع الخديوى ؟ ابقى أسأله أنت لما تشوفه . . .
- [بهريج] ماشى كلامك ! . . [حالما] وماله ؟ . . بكره أسأله . بكره
أشوفه !

- فى سراية عابدين يا «سلطان أفندى» ؟
- فى سراية عابدين ! . . وسلطان أفندى دى . . وحياة خدودك
[يداعبها] لتبقى بكره «سلطان باشا» !

١٠ - الوطنية لماذا ؟

ينفرد « سلطان » بنحاله « الشيخ فتح الله » وفي حديث عائلى ذى شجون ، تفيض نعمتهما على مظالم الخديوى ورجاله . يذكر « فتح الله » أطرافاً من شقائه وشقاء الفلاحين . ويذكر « سلطان » أمثلة من استهتار « الدائرة السنية » بحقوقه وحقوق الأهالى . لقد استفحل طغيان الحاكمين على جميع المستويات . لم تبق وقاحتهم حرمة لبنى آدم . وتتفجر حماسة « سلطان » فيقسم أن ينضم بكل طاقات وظيفته واتصالاته « العليا » إلى حركة المقاومة السرية التى يقودها خاله . ويقتنع الشيخ بصدق عزيمة الفتى يغتبط ، ويسأل له البركة .

ولا عجب أن يُذكى محضر « الشيخ فتح الله » فى نفس « سلطان » المتقلبة عواطف الوطنية . لعلها وطنية خالصة ، كما تلوح فى الانفعالات التى تجتاحه فى أثناء تلك اللحظات الوهاجة . ولكن حرارة عاطفته إنما تنبعث من نار آكلة حقد دفين يكتمه هذا الموظف الصغير على عجزه المادى والمعنوى ، فيضرم فى أعماقه رغبة الثأر ويؤججها إنها وطنية أنانية فردية نفعية ، تريد أن تتنكر فى ثوب الزعامة الفضفاض . وطنية تختلف على كل حال فى جوهرها عن إخلاص شيخ

البلد الذى عاش حرًا من قيود الدواوين ، ولم يتعود خسة التزلف للرؤسا « الشيخ فتح الله » يعتر فى زراعة الأرض باستقلاله ، وإن كان محدودا ، يتصدى للمسئوليات بعزيمة ، ويتفانى فى خدمة الجماعة .

ودون أن يبدى « سلطان » إلحاحا مرييا فى استجواب خاله ، يقتنص ببراعة مما يفضى به الشيخ المطمئن إليه أقوالا تدل على أن « باقور الحنى » يتردد فعلا على الروضة ، وأن علاقة « باقور » بـ « داود » - الذى تجاور عزبته خيام البدو غربا قد توثقت تدريجيا . تطورت من المشاركة فى الزراعة وفى التجارة ، إلى تبادل الخيل العربية التى يهواها كل منهما ، إلى الثناء على « زنوبة » - وكان الضيف يلمحها أحيانا خلال زيارته المتكررة لاستعراض الخيل أو مراجعة الحسابات ثم إلى طلب يدها من أخيها .

« حسنية » إذن على حق ! بتأكد « سلطان » من صحة النبأ . نعم ، لقد كتب شيخ العرب الأصيل كتابه على الفلاحة الأصيلة . والبدو والفلاحون على السواء مستبشرون بهذه الرابطة التى ترمز إلى توحيد مصالحهم ، وتجديد سعيهم للإطاحة بالخدوى .

هنا يرجو « سلطان » خاله أن يصحبه إلى العزبة الغربية لكى « يبارك » « لداود » فهو لا يعرفه معرفة خاصة ، ويود أن يوطد علاقته به . ويخترق الرجلان الحقول . وللأسف لم يجد « داود » فى الدار . فلم يدخل من بوابة العزبة الخشبية الضخمة ، التى تحلها رؤوس مسامير نحاسية غليظة .

وأمام البوابة ، ودع « سلطان أفندى » خاله وتظاهر بالانصراف . ولكنه لم يرجع على بغلته إلى المنيا إلا بعد أن دار وحده دورة بطيئة كاملة حول سور

العزبة . كان يحاول أن يرى - بأذنيه وعينه - ما يجري في داخلها .
وبمجرد وصوله إلى المنيا ، جمع « البصاصين » الثلاثة . وكلفهم بالمراقبة
في الروضة حول « العزبة الغربية » لملاحظة أهلها ، ومراقبة حركاتهم ومعرفة
شخصيات الغرباء الذين يترددون عليهم

١١ - داود

صباح اليوم التالى ، فى المنيا .

« سلطان افندى » فوق بغلته ، على ضفة النيل المشمسة ، يبدو مسرعاً إلى غاية معينة . فجأة يتوسم فى الفارس الذى يمتطى ذلك الجواد العربى الرشيق السائر أمامه شخص « داود » . يركض بالبغلة نحوه هاشاً باشاً ، ويهم بأن « يبارك له » على مصاهرة شيخ العرب ... ولكنه يمتنع فى آخر لحظة ، ويفضل الظهور بمظهر الموظف الخطير إزاء فلاح محتاج مها بلغ ثراؤه - إلى حسن رعاية رجال الحكومة . ويتجنب ذكر « باقور » لئلا يتشكك « داود » فى أمره فيبالغ فى التحفظ .

يتبادلان تحيات جافة ، ثم يقول « سلطان » .

- دانا بادور عليك من رمان يا « سى داود » ورحت لك عشية مخصوص لغاية العزة .

- أهلا وسهلا . ويبدو القلق على « داود » فيردف « سلطان » .

- كنت مع خالى « فتح لله »

عندئذ تنفرج أسارير « داود » ، ويعلو صوته .

- أنا خدمة « الشيخ فتح لله » .

- العفو ! بس الموضوع اللي قاصدك فيه . تخليه بيني وبينك بلاش نجيب

سيرته لحالي ... وبلاش نتكلم فيه هنا جنب العمار

- خير ان شاء الله .

يقولها « داود » وقد عاد القلق إلى وجهه . ويحثان مطيتيهما للابتعاد عن

المدينة . تنطري وراءهما حقول شاسعة . ثم يشير « سلطان » فيترجلان قرب

ساقيه مهجورة .

يبدأ الأفندي هجومه في رفق . يعتمد لهجة الحذر والتستر وهو يعرض على

« داود » - بعد التلميح إلى مهارته في تهريب الملح - أن يعاونه « داود » في

تهريب كمية من الحشيش . قيصيح الفلاح مستنكراً :

- حشيش ؟ حد الله ! أنا ما ليش في الحرام !

- [في تقريع أشبه بالتهديد] يعنى مش حرام تشد الملح من ورا الحكومة

يا « سي داود » ؟ .

- هو فيه أشرف من الملح ؟ دا العيش والملح نعمة ربنا الله يديمها علينا

وعليك !

- إنما مش سرقة ؟

- لا حول الله ! صحيح يا عالم بقينا عايشين سرقة ! لكن سرقنا احنا

حلال . أنا باخد حتى . الحكومة واكلانا . ناهبانا . الغلة يا « سلطان أفندي »

بادخلها بالدس ، من غير ما حد يحبس ! علشان إيه ؟ دى شقايا وشقا

الرجالة.. على كل حال أنا ضميرى مرتاح وعصيان الظلمة دول ثواب عند الله !

- برضه أمر الحكومة ينطاع . وأنا عبد السلطان !

- لا ! ماتقولش عبد السلطان .. لما اسمك أنت « سلطان » خليك بقى

سلطان نفسك !

- [يغضب] سلطان نفسى وسلطان غيرى كمان ! أنا كنت باعمل

معروف : كان غرضى أنبّهك قبل ما يوصل الكلام للباشا المدير .

- [يرثى له] خالك مايرضاش بالحيانة أبدا . دا راجل كله شهامة . وعلى

رأى المثل : « إن صح الواد ينحول » !

فيقول « سلطان » ، وكأنه يعتذر :

- خالى مالوش شغل بالحكومة .

- عاوز الحرّ اللى زيه يحط إيدته فى إيد الحكومة ؟

وينطلق « داود » منددا بالجشع الرسمى المستشرى ، معددا نكبات الفلاح

الذى يراد الآن حرمانه حتى من الملح . فيتراجع « سلطان » ويغير لهجته ،

متعمدا أن يمالئ « داود » ليكتسب ثقته ، بعد أن ألقى فى روعه - بما فيه

الكفاية - أنه قادر على إيدائه .

- أنا معاك . ح تقول لى يا « سى داود » ؟ أنا أدري بالمظالم فى الدائرة

السنية ..

- وليه تشتغل فى الدائرة ، وتنفذ المظالم فى خلق الله ؟

- أكل عيش !

- يعنى ما فيش أكل عيش أشرف ؟ العمر واحد والرب واحد . واللى يرزقنا

بيه نحمده عليه .

- ونسيها لمن ؟ لوجيت معاك ، رح ياخذ مطرحى واحد تركى لا يفهم
ولا يرحم . آمال احنا أهو بنحاول نراضى الطرفين .

- لو كنت منك كنت قلبتها عليهم .

- ومين قال لك إني مش ناوى ؟ صنّ بس لما نتمكن .

- ولغاية ما نتمكن ، نفضل ساكتين ؟

- العملية واحدة . خليك انت مع خالى فى الفلاحين ، وخلينى أنا فى

الدائرة . علشان نعرف نوضب الشغل مع بعض بره وجوه ، ونطريقها على
المفتري بقدره قادر !

- برضه كلام معقول . . .

- إيدك على كده ! [ويمد يده لداود] .

- [يشد على يده] عهد مين ؟

- عهد الله ! . . والله لنخرب بيتك ياللى خربت البلاد !

- ربك كريم !

- أفوت عليك بكره العصر فى الغزبة ؟

- مرحبا بك .

- ما تأخذنيش ، أصلى مستعجل . الباشا المدير فى انتظارى . .

- . . مع السلامة .

وينظر « داود » وهو على صهوة جواده الكريم إلى بغلة « سلطان أفندى »

المهرولة وسط التراب . ويستغرق فى تأمل تشوبه الحيرة .

١٢ - تضامن بالإكراه

ينفق « سلطان » معظم أيامه ولياليه في الروضة . يتنقل هناك من أحضان « حسنية » التي توهج نيران غروره وأطماعه ، إلى « العزبة الغربية » التي يفضل أن يتردد عليها الآن دون صحبة خاله . أما مأمور الروضة ومدير المني ، فلا يزورهما إلا لئلا . لقد أقنعهما بأن هذا أجدى لأبحاثه ، إذ لابد من التغلغل في حركة المقاومة السرية ، بل والظهور بأنه من أبطالها ، حتى تنكشف له جميع خطوطها ، ويندمج في قيادتها العليا ، وينفذ إلى مقر « باقور » .

و « باقور » لغز مستغلق . يقال إنه مازال غائبا عن عروسه الفلاحة ، لتصريف أمور عاجلة استدعت رجوعه إلى منطقة القيروان . ومن يدري لعله يؤلف هناك جيشا ينقضّ به بين يوم وآخر على الخديوى ، مع هؤلاء الفلاحين الساخطين .

ومن خطوة إلى خطوة ، يزداد استقلال « سلطان » عن الجميع . وينضج تفكيره الذي يزين له أن يستغل الظروف كلها لمنفعته أولا .

ذات مساء ، يحس أن « داود » قد أنس إليه فيتبذ به ركنا بعيدا عن رجال

العزبة ، ويفاتحه :

- أما النهارده ، ماتقوليش كافي ولا ماني ! أنا استوليت على عشرين زنبيل بالفهولة ! كانت رايحة مصر. أصحابها لمخوفي نازل مع ثلاثة غفر ، اتهميا لهم أنها كبسة . تركوا البضاعة ونفذوا بجملدهم . . شوف الصدف !
وبرغم إباء « داود » وتخرجه ، يلح عليه « سلطان » يرجوه ألا يفعل أكثر من أن يحفظ له هذه « اللقية » في مخزن الملح السرى مدة ليلتين فقط ، ولا يقبل « داود » أداء هذه « الخدمة » إلا إنقاذاً « لسلطان أفندى » من عواقب وخيمة رغم أنها لاشك لاحقة به - وهو الموظف الرسمي - لو ظلت هذه المخدرات في حوزته .

كانت تلك الواقعة بداية انتصار « سلطان » على « داود » . لقد زج به في تهريب الحشيش . لا ليجعل منه كبش الفداء فحسب - إذا دهم الخطر - بل ليشاطره أخفى ما يكتّم من أنباء . . أنباء تأمر باقور الحنفى على الخديوى .

١٣ - الخديوى يساوم

لكى يستأثر «سلطان أفندى» بفضل اعتقال «باقور» ، قرر أن يضلل الأمور والمدير ، وأن يحتفظ فى يديه وحده بالخيوط التى يجمعها من مختلف المصادر ، ولم يطل تحفزه حتى وثب وثبته الكبرى .

ها هو ذا يوهم المدير بأنه سيقوم فى الصحراء برحلة استكشافية لمدة أسبوع تقريبا - يأتية بعدها بالخبر اليقين . فيأذن له المدير بالتغيب عن عمله . غير أنه يزعم «لداود» أنه سيقضى الأسبوع فى القاهرة لإنجاز صفقة دقيقة مع بعض كبار المهربين الذين وصلوا من بيروت . والحق أنه يرحل إلى القاهرة فعلا ، ولكن - كما تعلم حسنية فقط - ليقابل «الخديوى اسماعيل» . .

وكان «إسماعيل باشا» - مع استهتاره بكرامة المصريين - يحرص على تسمع أدنى الشائعات التى تسرى بينهم مما يتصل بالأمن العام . كان يخشى انفجار سخط الشعب ، ويتوقع مؤامرة لاغتياله فى أية لحظة . ألم تتكرر محاولات الاعتداء عليه فى الشهور الأخيرة ؟ لذلك قرأ باهتمام هذا الخطاب القصير الذى قدمه «سلطان أفندى» لرئيس التشريفات فى القصر ملتصا

مقابلة الجناب العالى لمشافهته شخصياً فى موضوع « الشيخ باقور الحنفى » . ويأمر الخديوى بإدخال موظف « الدائرة السنية » عليه فوراً .
بلا مقدمات ، يسأل الخديوى متعجباً :

- وإنت تقدر تعمل إيه ؟

وتجربى فى الحال بين الرجلين مساومة حادة ، قاطعة ، دنيئة . خلاصتها أن يتعهد « سلطان أفندى » بتسليم « باقور الحنفى » حياً للخديوى نظير الإنعام عليه بلقب الباشوية وبمبلغ عشرين ألف جنيه . وما أتفه هذا الثمن الذى يبذله إسماعيل للنجاة من خطر محقق ! إلا أن « سلطان أفندى » يشترط - بالحاح - عدم ذكر اسمه إطلاقاً . فيوافقه الخديوى وهو يفرض عليه شرطاً موازياً :
- لمدة شهر وبس ! وبعد شهر واحد ، إن ماسلمتنيش باقور الحنفى هنا ،
ح نفصحك فى المنيا وماحدث يبقى يحملك من « باقور » الى ما قدرتش عليه !
إعرف شغلك ..

- طيب ...

- مع السلامة !

كان لقاء كالبرق فى خطفه ، وسطوعه الباهر ، وهزة الخوف التى تحدثها شرارة مفاجئة حاسمة تمزق الجو تمزيقا .

ويخرج « سلطان أفندى » من قصر عابدين وهو يتصبب عرقا . ترى هل أصابته الحمى ؟ إنه ملتهب الرأس ، نهب المشاعر متناقضة تجتاحه . تارة يبتسم مغتبطا مزهواً ، وتارة يكشر عن نواجذه غاضبا محنقا . أيعامله الخديوى معاملة صعلوك ؟ أهدده بإفشاء سره وتسليمه هو إلى « باقور » ؟ أهكذا يكافئ

إسماعيل الغادر موظفا عنده أراد أن ينقذ حياته ؟ ولكن لا سبيل الآن إلى التراجع . . إنما « إسماعيل » هو الذى يدفعنا إلى ارتكاب ما نكره . هو الذى يورطنا فى الخيانة . وهو أكبر خائن فى مصر كلها ! لا بأس ، سأضحى « بباقور » لكى أتمكن منك فى المستقبل القريب أيها النذل المفترى . لقد عرفتكَ الآن ، ولن تخدعنى بعد ذلك . .

غير أنه عندما وصل إلى المنيا ، كان قد طوى فى نفسه هذا الحقد الجديد . ولم يلاحظ خلطاؤه عليه إلا مزيدا من الاعتداد بالنفس والتكبر . ومضى مسرعا إلى « حسنية » فى الروضة « وهو يتخايل فى حلة قشبية . وبادرها مقهقهها :

- باركى « لسلطان باشا » !

١٤ - صمت الفرسان

جرت عادة « داود » أن يستقبل في يوم الجمعة من كل أسبوع أولئك الذين يتعامل معهم من غير أهل الروضة . إنهم يأتون من بعيد ، بنية انتهاز الفرصة لقضاء حاجاتهم أيضا صبيحة اليوم التالى إذ ينعقد « السوق الكبير » . وهم يتوافدون دائما على « العزبة » فى ساعات النهار الأخيرة .

وقد أطل « سلطان » سهرة هذا الخميس حتى فجر الجمعة مع « حسنية » فى بيت الغوازى . وعند الشروق خرج لمفاجأة العزبة بزيارة استطلاعية . امتطى حصانه - أجل ، فلقد باع البغلة التى لم تعد تليق بمقامه ، واقتنى فرسا فاخرة يتبخر بها بين الناس . وما هى إلا دقائق حتى ترجل أمام بوابة العزبة الضخمة . وإذا به يسمع من قلب الفناء صهيل جياد تهلت بلا شك لاقتراب فرسه . ولكن البواب - وكأنه هوجم على غرة - يبادر إلى إيصاد المصراع الموارب ، ويقود الأفندى و « ركوبته » نحو مدخل السلامك . وفى السلامك كان « داود » يتناول القهوة ويدخن ومعه نفر من البدو ، لا يكاد « سلطان » يعرفهم .

صافح «سلطان» داود «فوقف الرجال في احترام يصافحون بالمثل هذا الضيف الطارئ . كان التكلف واضحاً في عبارات التحية المتبادلة وجلسوا ، فعقد الارتباك الألسنة . وأراد رب الدار أن يقطع الصمت ، فلم يسعه الكلام إلا بحديث مبتذل عن فيضان النيل ، وعن سوق الغد ، ولم يلبث الأعراب أن نهضوا ، وسلموا ، وانصرفوا على جيادهم .

ولكن بضع كلمات ألقاها بصوت «أخنف» خفيض أحد هؤلاء البدو - وهو أكبرهم سناً - في لحظة انطلاقه خارج بوابة العزبة ، طرقت سمع «سلطان» فأنارت فضوله :

« لا . خلى الحصان هنا . اربطوه ورا من الحوش ماحد يشوفه لأنه لابد يحتاج له أول ما يقوم بالسلامة . »

لم يظهر «سلطان» وهو يعبث بجبات مسبحة الوردية ، أنه سمع أو فهم شيئاً . وظل «داود» جامداً . ولماذا يتطوع بالشرح ، إذا كان «الأفندي» لم يدرك معنى ما قيل ؟ وعلى فرض أنه قد فطن إلى الأمر ، فهل ينبغي أن يحذر رجل من شريكه الذي يشاطره مخاطر التهريب ، ومن حليفه ضد «الحكومة» ؟ «سلطان» هو الذي تكلم بعد وهلة . تكلم عن صفقاتهما . فأيقن «داود» أنه فتى كريم - كخاله - تعمد أن يشير بذلك إلى وحدة أسرارهما وكأنه يتعهد بالكتمان . ولم يطل تداولهما ، فقد تعلل «سلطان» بأنه على موعد سابق مع خاله في الروضة . وركب فرسه . ولكنه انجھ صوب المنيا .

١٥ - العلاج

كان أهم ما يعنيه هو أن يصدر تعليمات عاجلة لجواسيسه الثلاثة . وقرب المنيا ، وهو يركض شمالا في ظل شجر الكافور الممتد على ضفة النيل ، رأى الفلاح العجوز « سلمان » - أحد فلاحي عزبة « داود » - مقبلا في الاتجاه العكسي على ظهر حمار مرهق ، يبدو أنه عائد إلى العزبة بعد أن قضى في المدينة مهمة خاصة . يقف « سلطان » بفرسه ليستجوبه على مهل . ولكن الفلاح لا يكاد يبصر الأفندي حتى يحث حماره ليتجاوزوه .

- يعنى بتنخس الحمار قوى يا عم « سلمان » ! حيلك عليه دا واسق ! إيه دا كله اللى فى الخرج ؟ - وَلَا خُرج اللى رايح يعجج !
- أبدا . دول يادوب شوية دويان جايهم من المنيا . . . مطلوبين . . . لستى « زنوبة » . . .

- سلامتها . عندها إيه ؟

- مسكينة ! عشية اترحلت بعيد عنك ورجلها انجزعت .
وتبرق الخواطر فى ذهن « سلطان » . غير صحيح ما يقوله ذلك الفلاح

الوفى ، الذى واصل ركضه دون لأى . . أجل ، فقد لمح « زنوبة » هذا الصباح وهى تسير فى فناء العزبة بخطوات رشيقة كالغزال . . لا بد أن المصاب شخص آخر ، وأن هذا الشخص الآخر هو الذى تكلم عنه الشيخ البدوى « الأحنف » عند رحيله ، وأوصى بالتستر على جواده ريثما يتم شفاؤه . . لا بد أنه بدوى مثله ، وبدوى يحاول التخفى ، وبدوى خطير الشأن من أجله يتخذ القوم احتياطات غير عادية . . ومن عساه أن يكون - هذا البدوى الخطير المستخفى لدى « زنوبة » - سوى « باقور الحنفى » ؟

صعد الدرج العريض ، واستدعى فى ديوانه البصاصين الثلاثة ، لم ينبثوه بجديد ، اللهم إلا شهيندر الذى روى واقعة قدوم سلمان إلى صيدلية المدينة ، حيث طلب من العقاقير ما يلزم لعلاج « جزع شديد » أصاب قدم خيال سقطت به فرسه ليلاً فى حفرة ساقية مهجورة .

سلطان : وعارف الخيال ده موجود فين ؟

شهيندر : فى عزبة « داود » يا أفندم .

وبدا « سلطان » ساهما . كان يناقش نفسه أكثر مما يناقش الرجال الثلاثة

الواقفين أمامه :

لو عدت اليوم مرة ثانية إلى العزبة ، لأثرت ريبة أهلها فى نواياي . الأفضل ألا ألقت الأنظار نحوى بأى تصرف أهوج . ولكنهم قد ينقلون « باقور » إلى مكان آخر أجهله إذا أطلت الانتظار . لحسن الحظ أن « باقور » جريح وقد لا يقوى على الحركة قبل يومين . إني كفيل - فى بحر هذين اليومين - بإبعاد « داود » نفسه عن العزبة حتى يخلو لى الجو . . . مرحى !

ويعمسك بالقلم ، ويكتب على ورقة بيضاء :

« أخى العزيز « داود »

سلاماً قلبياً وبعد ، كنت أود أن آتى إليك بنفسى لأبلغك ما فى هذه الرسالة . ولكن الأمر عاجل جداً ، ووجودى فى المديرية أهم وأضمن لنجاح الخطة السرية التالية :

غدا ، فى الفجر ، ستقوم بأمر المدير ذهبية من المنيا محملة بالغلال إلى المحروسة . ضع بضاعتنا فى « شوالين » يشبهان تماماً « أشولة » القمح المشحونة . وأحضرهما بشخصك مع الاستعداد لتركب معهما الذهبية التى ستترك بكل أمان فى بولاق دون أن يتعرض لك أحد . ولإعفاء البضاعة من أى تفتيش ، سأعطيك توصيات كتابية لجميع المسؤولين عندما أقابلك فى الساعة الخامسة من صباح الغد فى موردة المنيا لأودعك بالسلامة . . ودمت لأخيك .

المخلص

سلطان

سلم شهنذر هذه الرسالة « لداود » فى سلامك العزبة استولت الحيرة على « داود » همّ بأن يرد على « سلطان » رافضاً ذلك التخطيط الذى يضطره إلى التغيّب فى ظروف قد تستلزم بقاءه بالقرب من الدار . ولكن الأفكار المتدفقة فى ذهنه لم تلبث أن أمسكت يده عن الكتابة بعد أن خط سطرين . وعادت عيناه إلى قراءة الرسالة . أليست هذه فرصة ثمينة ؟ هل يضمن أن يسنح له مثلها فيما بعد ، لسوف يقضى « المشوار » على جناح السرعة بفضل الترتيبات التى أجاد « سلطان أفندى » اتخاذها مع « الحكومة » . يخامرہ الاقتناع ، فيصرف

شهبندر . ويستعد للرحيل ، في تكتم شديد .
وعند طلوع الفجر ، يجد « داود » شريكه في انتظاره . لا على البر ليخلو به
لحظة ، بل في داخل السفينة ، يتلقفه « سلطان » في لهفة ويقدمه « للرئيس »
ورجاله . ويعطيه خطابين مغلقين وهو يودعه وداعاً حاراً .
وتتحرك السفينة .
هو ذا صاحب العزة يتعد عنها لمدة أسبوعين أو عشرة أيام على الأقل .

١٦ - فحيح تحت المشربة

في ضحى اليوم نفسه ، وقد انتشر الفلاحون في الحقول واستغرقهم الكدح تحت شمس حامية ، دلف « سلطان أفندى » من بوابة العزبة . صادف في الفناء خادماً عجوزاً ، فسألها أن تخطر سيدتها « زنوبة » بأنه يريد أن يخاطبها فوراً في مسألة شهمها .

وعندما لاحت وراء المشربة القديمة التي تحجب طنف الصندرة رأس « زنوبة » وكأنها تطل من خمار خشبي دقيق ، تشكلت في ذلك الإطار الأصيل صورة أنيقة جذابة . لكن « سلطان » أفندى كان متوتر الأعصاب ، شارد النظرات ، لا يرى هذا الجمال ولا يرق له .

- قربى ودنك شوية .

- [بجفاء] أنا سامعك كويس كده . الخبر إيه ؟ دانا رجلى وجعانى وواقفة

عليها بالغصب .

- [ساخراً] رجلك وجعاكى ؟ بعد الشر ! من إيه ياترى ؟

- عتريت وأنا طالعة السلم . . قول بسرعة وخلصنى !

- الرجل اللي موجوعه فى العزبة دى مش رجلك يا اختى . إنما عفارم عليكى ، انتى عاوزة تبعدى الكلام عن « الشيخ باقور » . لكن مافيش داعى تكذبى علىّ أنا . هو أنا غريب ياست « زنوبة » ؟ . . . « داود » أنخويا مايجبش عنى حاجة أبدا . . بأماره ما « الشيخ باقور » وقع به الحصان فى الساقية من ليلتين .

- إنت غرضك إيه ؟

- غرضى سلامة « الشيخ باقور » ، وسلامة « داود » ، وسلامتك ! وأنا لولا العيش والملح ، ومعزتكى عندى واحد واحد ، ما كنتش والله اتحركت من المنيا . بقى الموضوع جد ، اسمعى . المأمور عرف طريق الملح الى مخزنه « داود » . وبلغه علم بأن « الشيخ باقور الحنفى » الى بيدور عليه الخديوى ذات نفسه من سنين - مستخفى النهاردة فى عزبتكم . . .

[فقاطعته الفلاحة الأيية ، برباطة جأش لم يكن يتوقعها] :

- إيه الحدوتة اللي بتحكىها دى ؟ على أى حال كتر خيرك ، تعبت نفسك وجيت لغاية هنا . ده كل الى عندك يا « سلطان أفندى » ؟
- أنا عاوز أنخدم .

- طب اركب فرستك والحق « داود » وقول له ! ده حتى من مصلحتك :
ما انتاش مشاركته فى الملح وغير الملح ؟
ولكن « سلطان » استأنف هجومه ، متوخيا الضرب على أوتار المرأة الحساسة . قال وهو يتصنع رنة أسى فى صوته :

- مادام كده ، أنا ح اسكت . مش ح اقول بى للمدير لما يشد النهارده

تلغراف لمصر علشان يحبسوا أخوكى ساعة ما يوصل بولاق . يرضيكى خراب البيوت ؟ وأنا باكى عليكم ياعينى وبدى أمنع الأذية .. الناس لبعضها . واللى يعمل خير يلاقه . إن كنتى أنتى تفرطى فى « الشيخ باقور » ، أنا ما افرطش فيه واصل : ده شريك خالى ، ومقامه عندى مقام خالى . والا يعجبك ظباط الحكومة يحرجروه قدامك ويضربوه بالرصاص ؟ .. الله يسامحك !

هنا تنهار مقاومة « زنوبة » . ويدفعها الجزع إلى الاعتراف والاستصراخ :

— أمان أمان ! فى عرضك يا « سلطان أفندى » ! أيوه « الشيخ باقور » .. « الشيخ باقور » فى رقبنا . رجله مكسورة يا ضناى وباخدم عليه .. ونروح فىن دلوقت ؟ حوش عنا الحكومة يا « سلطان أفندى » — الله يخليك ! « الشيخ باقور » فى عرضك ، وأنا فى عرضك ، و « داود فى عرضك ! قول لى أعمل إيه ؟

أجاب فى فيض من النخوة الزائفة ، وعيناه تلتمعان :

— شدى حيلك يا اختى ! سليمة العواقب إن شاء الله لو اتحركنا بدرى . البركة فيكى هنا . وأنا برضه زى « داود » عليكى تجربى « الشيخ باقور » بالموضوع . دلوقت على طول . بس أوعى ييجى اسمى على لسانك ! وأنا مستعد أوضب كل شىء مع المدير وغير المدير ، إنما احلفى لى فى الأول ما حدش يدري باسمى !

— والله العظيم ما حد يدري باسمك !

— شوفى : أنا رايح أعطل كبسة المأمور لغاية بكره . ومن هنا لبكره الصبح ، رجالة العزبة يكونوا فرغوا المخزن ونقلوا الملح فى أى نقب ، فى أى

غيظ . أنا عارف مافيش فى المخزن غير الملح ، بسيطة ! أما « الشيخ باقور » ،
فأنا هابعت له ثلاث خيالة من عندى ، ياخدوه بالراحة فى نص الليل ،
ويوصلوه فى أمان الله لبيت خالى فى عزبة « المحرص » [يتكلف التلفت حوله
بحذر] علشان ما حدش يعرف له سكة ، لغاية ما يخلص التفتيش هنا ،
ونرجعوه لك تانى والا تالت يوم بنفس الطريقة . إيه رأيك ؟
تتنفس « زنوبة » الصعداء :

- تسلم حياتك ! الله يحفظ شبابك ! ويقدرنا على رد جميلك ! بس ربنا
يهدى « الشيخ باقور » ويقبل . أصله بوسواس ، ورأسه ناشفة . . .
- لازم يقبل ! ويفهم إن النجدة دى مدبرها « داود » . المهم إن اسمى أنا
مايخطرلوش على بال . والا الراجل ح يفتكر ان الخديوى ناصب له كمين على
يد بتوع الدائرة السنية !
- كلامك فى محله .

لقد ارتفع فى نظرها الآن وفاء هذا الصديق المتفانى ، الذى يبذل الخير
وينكر ذاته . وبلغ من امتنانها أنها لو استطاعت أن تقبل يد « سلطان أفندى »
من خلال المشربة لفعلت .

ولم يكد الثعبان يحببها ويستدير منصرفا - وهو يتظاهر بالإسراع - حتى عاد
على أعقابهِ ليضيف بصوت خفيض كالفحيح :

- أنا كنت ح أنسى أهم حاجة . . ما اتفقناش يا اختى على إشارة . رجالتى
الى ح يوصلوا هنا الساعة اتناشر بالطبط ، يعرفوا ازاي إن « الشيخ باقور »
مستعد ؟ العملية خطيرة ، وإذا حد عتر بيهم رحنا كلنا فى الحديد . خلى

بالك : « الشيخ باقور » ما يظهرش من الباب إلا على إشارة . وما يكونش أى حد معاه ، أبدا . الحيطان لها ودان ، والشجر له ودان !
- الله ينور عليك . والإشارة إيه ؟

سكت « سلطان » لحظة كأنما ليبحث فى أعماق ذهنه عن فكرة . ثم طرق فجأة جبهته بكفه وقال :

- آه ! أول ما يوافقك « الشيخ باقور » انشرب على شباك السلامك البرانى بشكير أبيض بحيث يبان لى جاي من بحرى إنما ما يخرجشنى الشيخ من البوابة إلا لما تسمعى انتى بودنك ثلاث خبطات ورا بعض على نفس الشباك ، بالشكل ده [ينقر على خشب المشربية ثلاث نقرات] سامعة ؟
- أيوه .

- وبعدها الرجالة يقولوا كلمة السر .

- وهى إيه كلمة السر ؟

- ح اخليهم يقولوا : « منصور مش مكسور » .

- إن شالله يارب !

١٧ - إشار

لم يكن من اليسير - كما توقع « سلطان » أن تقنع « زنوبة » « الشيخ باقور » بتنفيذ خطة لم يشترك هو في تدبيرها .

أما العروس الشابة فقد استبسلت أولا في إقناع نفسها بالأمر الواقع . عزيز عليها حقاً أن تفارق رجلها ، وأن تفارقه وهو في هذه الحال . ولكنها تقهر عواطفها ، وتصور له - في إيمان القلب المحب - أنه عائد بعد يومين اثنين ، ليصبح محل عنايتها وتمريضها ، دون أن يعكر صفوها أى تهديد من الخارج . والشيخ الجريح ساخط متبرم . الكسر في ساقه يشل حركته تقريبا ويجعله عاجزا عن الدفاع عن نفسه إذا - لا قدر الله - أذيع السرو وهو جموا . إن فكرة الكمين ترد على خاطره ، فهو مرتاب بطبعه ، ولكنها تفارقه بعد وهلة . ذلك أنه يثق . تمام الثقة « بداود » !

وأخيرا ، بعد تقليب الموضوع على وجوهه التى يراها ، ترجح في قلبه النبيل مشاعر العطاء والتضحية والإيثار . فيرضى أن يغادر العزبة ، بل يتعجل الرحيل ، لئلا يجلب محضره أى مكروه لعروسه الرقيقة الكريمة .

١٨ - لو تكلم البدر

هجع الريف مطمئنا بين أحضان الليل . وأطبق السبات جفون أولئك
الذين قضوا نهارهم في الحقول كادحين . البدر وحده في السماء الساجية هو
الذى سيشهد الأحداث .

عند منتصف الليل بالضبط ، سمعت « زنوبة » ثلاث طرقات متتابعة على
نافذة السلامك الخارجية التي يتلى منها « البشير الأبيض » فانفتح في بطم
باب العزبة الضخم . لمع في ضوء القمر الخافت ما يكسو الخشب السميك من
رعوس المسامير النحاسية الغليظة . وقال صوت في الظلام :

- منصور مش مكسور !

فأجاب من الداخل صوت نسائي مبتهل :

- إن شا الله ! . . مع السلامة !

وخرج حصان عليه فارس جليل متدثر . حقّت به في الحال أشباح الفرسان
الثلاثة المنتظرين . وسار الموكب الصغير في صمت نحو قرية « المحرص » .
وفجأة ، من منخفض جاف كان في الماضي غديرا ونضب ، بزغت فرقة

من «عسكر المديرية» كانت متربصة . وتكاثر أفرادها على «الشيخ باقور» .
قيده وكمموه ، قبل أن يتمكن من إطلاق مسدسه الذى كان يمسك به فى طى
حرامه الفضفاض . كل ذلك جرى فى مثل ملح البصر . وقد تعمد «سلطان
أفندى» أن يتولى العساكر الرسميون دون سواهم هذه المهمة ، لكى ينقى
الشبهات عن «زنوبة» و «داود» - وعن نفسه أولا - حين يهب البدو للأخذ
بثأر زعيمهم .

وفى إلى تلك الأرض الواطئة ، كان شاطئ النيل غير بعيد . وكانت ذهبية
راسية بجانب الجسر المرتفع ، متأهبة لاحتواء الأسير . فتقله الرجال إليها فى
حيطة ورقى . وأبحرت متلصصة تحت جناح الظلام .

وظل الظلام مطبقا على الأسير القعيد ، حتى بعد طلوع نهار ونهار . .
وعندما ظهرت فى أفق بولاق تلك الذهبية البيضاء ، اصطف على رصيف
الميناء كبار ضباط الحرس الحديوى يتطلعون إليها وهى تدنو . وتساءل الحمالون
المنكمشون فى ركنهم عن سر هذه «التشريفة» ، ومن عساه أن يكون الصعيدى
العظيم الذى جاء لاستقباله «البكوات» . . غير أن السفينة رست فى سكون ،
وكانها خالية من الركاب .

نزل منها «عرفان» و «غزولى» و «شهنذر» يحملون ذلك الأسير الأعزل ،
المكتم ، المكسور الساق والموثق اليدين . واقتاده الضباط بكامل هيئتهم
وسلاحهم إلى القلعة ، حيث زجوا به فى سرداب قصى ، معتم كالقبر ، يخفوه
عدد هائل من الجنود .

١٩ - غروب على النيل

لحسن حظ « داود » تمت عملية « الشوالين » بسهولة لم تُعْزِزه إلى تقديم التوصيات التي زوده بها « سلطان أفندى » . والحق أنه لم يكن يرغب في لقاء الناس عامة ، ولقاء رجال السلطة خاصة . كان مهموما ، موزع الخاطر ، تستغرقه الهواجس . قدماه تسيران على أرض القاهرة ، وذهنه سارح في العزبة . إنه يتمثل صورة « زنوبة » الحانية على « باقور » الكسير ، فيعتربه الخوف عليهما . غير أنه لا يستطيع أن يتحدث عن شجونه أحدا . ويمجرد أن سلم « البضاعة » لأصحابها في أطراف شبرا ، عاد إلى بولاق ، ليلحق بسفينة كانت على وشك الإبحار إلى الصعيد .

يثقل عليه إبطاء السفينة ، مع أنها تقصد المنيا دون أن تتوقف إلا مرة واحدة على بنى سويف . ويجتذب إليه وجومه عطف بعض الركاب الطيبين . يبادلهم عبارات الود دون أن يخرج عن تحفظه . وإذا نخلو إلى نفسه في المساء ، تتنابه مثل حيرة الفأر في المصيدة . إنه كلما أراد أن يحول فكره عن العزبة وعن

تركهم فيها ، يعود القلق فينشه . ولا ينتفضي ندمه على تهوره بالسفر في هذه الظروف .

إنه لا يعلم على كل حال - وسفيته تدنو من بلدة « العياط » أن تلك الذهبية الأميرية المقابلة ، التي يراها في أشعة الغروب تنساب نحو الشمال ، ولا يميز الواقفين على ظهرها [وكان خليقا بأن يميزهم لو تنبه إلى العالم الخارجى] ، إنما تحمل في قاعها ، مسجى على أريكة تكتنفها الوسائد ، ضيفه الكريم ، صهره العزيز ، حليفه وزعيمه . . بلا حول ولا قوة . .

يصل « داود » إلى العزبة ملهوقا مكدودا . يلمح في مدخلها حركة غريبة . نساء في ملابس الحداد السوداء يتقاطرن على المنذرة ، بينما غص السلامك بالفلاحين والبدو . ومع ذلك فالخشوع يخيم على الربوع وعلى الوجوه . . ماعدا « سلطان أفندى » الذى يتصدر الرجال ، ويرسل الزفرات والخسرات ، وهو يعرك مسبحته الوردية منفعلا . أما خاله الوقور فقد جلس في ركن صامتا ، مطرقا إلى الأرض ، مستندا بيمناه على عصا صقيلة مستقيمة .

بالفجعية « سلطان أفندى » ! إنها فجعية مضاعفة ، لأنه هو الذى أراد أن يدرأ الخطر وتطوع لإنقاذ حياة « الشيخ باقور » - وما أغلاها لبيت « داود » وللأمة كلها ! لكنه معذوز مقهور : غدرت به « الحكومة » إنه ينفطر ، ويئن ، ويشور ، ويقسم أغلظ الأيمان . . ثم يهيب بالقوم ألا يفقدوا الأمل ، ويعاهدهم - إذا حفظوا السر ولم يذكروا اسمه قط أمام المسئولين أوجواسيسهم - أن يحاول محاولة أخيرة لدى القصر ، بمعاونة كبار موظفى

« الدائرة السنية » ، لعله يتمكن من استصدار عفو الخديوى عن « الشيخ باقور » نظرا لحالته الصحية .

ويستحى « سلطان أفندى » ناحية مع « داود » لبضع لحظات ثم يحى الجميع معلنا سفره إلى القاهرة فورا للقيام بهذه الوساطة .

٢٠ - بين عابدين وحلوان

وشخص « سلطان أفندى » إلى قصر عابدين وحيداً . كان طليقاً ، خفيف الخطى ، تراوده فرجة الظفر . أنه بمجرد ذكر اسمه لرجال التشريفات سيستقبله الخديوى ويحتفى به . لقد حالفه الحظ ضد تحدى الخديوى فلم يتجاوز الشهر المحدد لاعتقال « باقور » لا بد أن براءة الباشوية قد أعدت ، والآلاف العشرين فى انتظاره ، وماعليه الا أن يتقدم ليتسلمها ، ومن يدرى ، لعل المبلغ قد ضوعف ... لا سيما وقد تخلص الخديوى نهائياً من « الشيخ باقور الحنفى » . نعم ، فمئذ أسبوع أمر إسماعيل باشا بإخراج الأسير الخطير من القلعة ليلاً ، وإلقائه سراً فى النيل . ثم أشيع أنه انتحر بالوثوب إلى النهر قرب « البدرشين » ، فى غفلة من الحراس عشية وصول الذهبية ، التى تحمله إلى القاهرة .

وسلطان أفندى « مسرور فى قرارة نفسه بهذه التطورات الأخيرة التى لم يشترك فيها ، لأنها ستعفيه - إزاء البدو والفلاحين فى مديرية المنيا - من مسئولية الفشل فى الإفراج عن « باقور » . كل الهموم إذن وراءه . وليس أمامه إلا أن يجنى ثمار فوزه ، وأن يقتحم أعز آفاق القاهرة ...

على أن رجال القصر لا يعنون بهذا « الأفندى » . عبثا يطلب مقابلة الخديوى ، شفويًا وتحريريًا . إنهم يهملونه ذلك أن إسماعيل قد أنبى بحضوره ، فأظهر من الضيق والغضب ما حمل رجال الحاشية على مجافاته .

في هذه الأثناء يتعرف سلطان « باليوز باشى » « محمود عبد السميع » . وهو ضابط مصرى من ضباط الجيش ، مهضوم الحقوق ، يضطهده رؤساؤه الشراكسة ، وقد أتى ليدفع مظلمة إلى الخديوى . وأخيراً ، بعد المثل من ساعة إلى ساعة ، يصبح رئيس التشريفات « لسلطان أفندى » أن يعود في اليوم التالى لينال سؤاله .

وقبل أن يحجم المساء يزور « سلطان أفندى » ضابط الجيش الذى أنس الية صباحاً وشاطره سخطه . منزل متواضع فى حى الحسينية الشعبى ، وسبعة من البنين والبنات لا يكفى مرتب اليوزباشى لقوتهم ، إذا استطاع أن يقبضه ... فالمرتبات لم تصرف منذ ثلاثة شهور .

ويؤدى حديث المظالم وشكوى الزمان والحكومة إلى المداولة فى البحث عن مخرج . هنا يبوح الضابط « محمود عبد السميع » « لسلطان أفندى » الذى يبدو أهلاً لتقته ، بأن جمعية وطنية سرية قد تشكلت - بعيداً عن عيون الخديوى - فى حلوان ، حيث يلتقى أعضاؤها فى منزل واحد منهم . وتضم الجمعية الآن كثيراً من ضباط الجيش المصريين ، والتجار ، وطلاب الأزهر . فلماذا لا ينضم « سلطان أفندى » إليهم ؟ إنه لا يتردد قط ، بل يتعهد بنقل الحركة إلى الصعيد ... دون أن يشير فى عباراته المتدفقة الحماسة إلى الشيخ « باقور الحنفى » أو الشيخ « فتح الله » أو « داود » ولو بكلمة واحدة .

هكذا تبدأ علاقة «سلطان» بإحدى خلايا الوطنية التي سبقت الثورة
العرايية فى منطقة القاهرة ومهدت لها .

وفى الصبح التالى يتمكن «سلطان أفندى» من مقابلة رئيس التشرىفات
بقصر عابدين ، فىلغه آسفاً أن وقت الخديو لا يتسع لاستقباله ، ولكن «ولى
النعم» قد أنابه فى تسليمه - بغير احتفال رسمى - براءة الباشوية أما مبلغ
العشرين ألف جنيه ، فها هى ذى قيمته فى صورة سندات على المالية من الدين
الموحد . يحتج «سلطان» ، لأنه على هذا النحولا بقبض شيئاً ... فىعده رئيس
التشرىفات بالتوصية على إقطاعه بدل السندات أرضا زراعية . ويرضى
«سلطان» شاكرًا ، متمنياً أن تكون «الأبعدية» فى مديرية الميا .

٢١ - سلطان باشا

ذبلت نصارة « زنوبة » أضناها الحزن الذى نجته ليل نهار . ونخر أعصابها الندم على اشتراكها فى تسليم « باقور » إلى عدوه
إن فى اتشاح جمالها البرىء بالتجاعيد وبالسواد جوراً صارخاً ، يستنفر ضمائر أهلها ، برغم تجلدها الرائع .

ومن هزال « زنوبة » وشحوب وجهها ، وعباراتها المتقطعة المتباعدة ، نعلم أن أياما كثيرة قد مرت على « العزبة الغربية » دون أن تصل أى أخبار عن « الشيخ باقور » أو عن « سلطان أفندى » . لقد سافر بعض كبار البدو أيضاً إلى القاهرة لاستنقاذ زعيمهم . ولكن طول انتظار الأنباء ينذر بالتشؤم . والشائعات ترددت أخيراً - تسربت من ديوان المديرية فى المنيا - بأن الشيخ « باقور » قد غرق فى النيل ، منتحراً ، قبيل رسو السفينة على ساحل بولاق .
غير أن شيئاً من تلك الشائعات لم يتأكد . هذا ما يكرره « دواد » لأخته ، وقد أتى إلى غرفتها ليواسيها ، وهو مهيض مثلها من الألم والكد . ولعله يجتهد فى إقناعها بسلامة زوجها ، لأنه يحاول الإيحاء بذلك لنفسه .

وتدخل الخادم العجوز عليها ، فتعلن « لداود » أن الشيخ « فتح الله » قد جاء يطلبه .. يغادر « داود » غرفة أخته ، ويحتاز الفناء الخالى إلا من أفراخ حمام قليلة حطت على الأرض أمام برجها الأبيض . ويصعد إلى السلامك ، فيجد الشيخ « فتح الله » جالساً يقرأ - وهو عابس متجهم - رسالة فى يده .

- جواب من مصر؟ .

- سلمهولى باليد الواد شهنندر آدى يادوب نص ساعة .

- من « سلطان أفندى » ؟ .

- من « سلطان باشا » .

باشا ؟

أنا الحقيقة مش فاهم كلامه .

-يقول إيه ؟

- عجائب ! ... اسمع .

« خالى العزيز الشيخ « فتح الله » .

بعد إهداء وافر السلام لشخصك المحبوب والجميع من يسأل ، أرجو معذرتى عن التأخر فى الكتابة إليكم حتى اليوم فنذ وصولى إلى المحروسة والأحوال فى تطور خطير ، وتغير مستمر . إن المعركة التى تخوضها قد أتسع ميدانها . وقد وفقنى الله لكسب مواقع جديدة ، نستطيع منها . بإذنه تعالى أن نشن هجومنا قريباً على المستبد المفترى .

البقاء لله وحده لقد خسرنا الشيخ « باقور الحنفى » ، ويالها من خسارة

فادحة ! إسماعيل باشا غدر به ، وأغرقه في النيل سراً ، قبل وصولي لمصر بثلاثة أيام .

ولما تأكدت بوسائل الخاصة من وقوع ذلك المصائب ، ذهبت للقصر ، وقابلت الخديوى . شرحت له أولاً أنني جئت ألتبس عفوه الكريم عن الزعيم العاجز . ثم هددته بالعواقب الوخيمة التي ستعود عليه من قتل « الشيخ الحنفى » . وانتهى كلامى معه بنوع من التفاهم المفيد . بل إنه أحسن اتفاق يمكننا الحصول عليه في الوقت الحاضر ، وصورته كمايلي .

نلتزم نحن بالكسوت ، ونقول إن « الشيخ باقور » رمى نفسه في النيل قبل وصوله لبولاق لأنه رجل حر يرفض الأسر ، مع أن الخديوى العطوف كان عازماً على مصالحته والعفو عنه . ونظير هذا الموقف البسيط من جانبنا ، عرض على الخديوى أن يمنحني رتبة الباشوية ، وأبعدية من أراضي الدائرة السنية غرب بحر يوسف .

والحق أنى ترددت كثيراً في قبول هذا العرض . ولكنى فكرت في واقع الظروف التي نعيشها ، فرأيت أن حركتنا - لا سيما بعد أن فقدنا الشيخ باقور - لن تفوى على أن تقلب الخديوى الآن ، بينما الباشوية والأطيان مكسب لنا من الناحيتين المعنوية والمادية . مكسب عظيم يزيد من نفوذنا في البلاد بين العامة والخاصة . وبهذا النفوذ نستطيع أن نهاجم الخديوى نفسه في الوقت المناسب . لا بد لنا اليوم من زعامة جديدة تخلف زعامة المرحوم « الشيخ باقور » . مصالح الناس في حاجة لمن يدافع عنها . وبتدخلى مع الخديوى سوف أتمكن من إسماع أصواتهم وإبلاغ مطالبهم . صحيح أن الباشوية والأطيان باسمى ، ولكنى أضعها

بأكملها في خدمتكم وخدمة الأهالى .

وعهداً مئى على ذلك ، أرسل لك طيه صورقى الرسمية ببدلة التشريفه
لكى تعلقها فى صدر الدوار . وهكذا تشرح نفوس الناس الذين يقصدونك ،
ويعرفون أن سلطان باشا معهم ويقف دائماً بجانبهم .

وسأغيب فى المحروسة أسبوعين آخرين لمفاوضة الخديوى فى بعض
التفاصيل . وعندما أحضر طرفكم سأشرح لكم مذكرات الحزب الوطنى السرى
الذى انضممت إلى مركزه ها مع جملة من الأعيان والتجار والعلماء والضباط
المصريين لتعديل نظام الحكم فى البلاد .

وإلى حين رجوعى للمنيا بالسلامة ، أستحلفك ياخالى برحمة والدتى
ورحمة « الشيخ باقور الحنفى » أن تنفذ كل ماجاء فى خطابى هذا ، وألا تخبر
أحدأ على الإطلاق بأن الخديوى قتل « الشيخ باقور » - سوى الأخ داود الذى
أبعث إليه بسلامى وأستحلفه كذلك بكل عزيز لديه أن يكتم هذا السر لمصلحتنا
جميعاً .

وأرجو أن يعتبر هذه الرسالة موجهة إليه شخصياً أيضاً ، فأقرأها عليه ياخالى
ثم احرقها أمامه ودمتم

للمخلص

محمد سلطان باشا

قرأ « الشيخ فتح الله » تلك السطور وملء نبراته الغيظ . ولكنه لم ينبس بأى
تعليق . ساد صمت ثقيل ، ممض ، خائق . وارتسم نفس التساؤل الرهيب على

الوجهين الصارمين . وبعد لحظة من ذهول ، يطرق « داود » إلى الأرض ويقول
يائسا .

- تبقى الضربة والكتمة !

وعلى الأرض ينحنى « الشيخ فتح الله » فيحرق ذلك الخطاب ، ومظروفه .
وقبل أن تخبو النار ، يلقى فيها بصورة « سلطان باشا » المتباهى بملابس
التشريفية . وينظر إليها مرة أخيرة واللهب يلتهمها - نظرة ازدراء إنه يريد أن يبرأ
من وصمة عار ، أن يبيد وثيقة هوان .

ويسطع وهج النار على ملامح الرجلين فيجلو مايعتصرهما من الألم
الدفين . غير أن قسما وجهيهما ترداد صفاء وهما يحدقان في الشعلة التي تلتهم
الصورة . لعلهما يتوسمان جذوة تتوقد في صدور جيل مقبل ، يتحول في سعيها
زور المفترين ومجدهم إلى رماد .

ماذا لحق بهؤلاء الشباب المنصتين لحديث أستاذهم ؟ ما الذي ظهروا عليه ؟
سلسلة محمومة من الصور القديمة تتداعى في ترتيب يُخلّ بترتيب المعاني المستقرة
في أذهانهم . والتيار يشق إداركهم كشرارة خطفت واستطال ثقبها في الظلام .
يكاد يبهريهم ذلك الوميض البعيد المتقطع وهم يحاولون أن يميزوه حجاب الرؤية
قد تمزق على كل حال في باطنهم . ولم تخمد تلك البؤرة المضيئة . إن إحساسهم
المرهف بالماضي الحبيس قد اندلعت نهاويله تحفّق في أبصارهم خفق النار التي
أحرق بها « فتح الله » خطاب « سلطان باشا » وصورته عند قدمي « داود »
المغلوب على أمره .

٢٢ - عودة الذاكرة

سكت الأستاذ « فخرى » ولكن ظاهرة غريبة سرت بين التلاميذ المتحلقين حوله يتتبعون بأعمق مشاعرهم ما ينبعث في عباراته من المشاهد . ظاهرة أشبه بما يقع أحيانا لمن يؤمنون بجلول الأرواح والتناسخ . راح بعضهم يعزوها إلى قوة إحياء المشاطرة الوجدانية . وراح بعضهم يفسرها بقوانين من علم الضوء عن إشعاعات الشمس الغاربة . وراح آخرون يدللون على أنها أطياف تجمت من انعكاس وهج الصحراء التي تكتنفهم وقد اختزنت حرارة النهار بأكمله فتخلخل الهواء فوقها .

وأيّا كان التعليل ، فعظمهم التلاميذ يقولون إنهم شهدوا وسط الحلقة وجهين خاشعين ناطقين بالعذاب يجتذبان أبصارهم ، وإنهم تعرفوا فيهما وجهي « داود » و « الشيخ فتح الله » ثم احتل مكان الصورتين فجأة وجهها الأستاذ « فخرى » والزميل « عادل » الجالس بجواره ، وعليهما إمارات الجدل والتحفر .

ويتأهبون للعودة إلى السيارة خطواتهم بطيئة . فما زالوا يواصلون الإنصات

والرؤيا . ويلاحظ أستاذهم هذه التؤدة التي لم يعهدوا فيها من قبل . يذ
مركز ثقل جديد يشدهم . وإلهم يتحركون إزاء الشفق المتأحج ، دون أن
ما في نفس كل منهم من حديث . ولكنهم لا يفرقون . كأن خيطاً واحداً .
بينهم وهم ينتشرون تارة على الرمال ، ويلتئمون تارة في مسيرة جماعية
أمام الهرم .

ومن خلال نوافذ السيارة التي تحتويهم ، ومن خلال خواطرهم المسنا
يرمقون البنيان المرصوص ، خجراً فوق حجر . تم ينطلق السائق بـ
المدينة ، فيخلو الأفق وراءهم إلا من تلك الكتلة الشاهقة الراسخة

محتويات الكتاب

صفحة

إهداء	٣
مقدمة	٥
تحقيق	١٥
أول الحيط	٢١
كاتب غي «الدائرة السنية»	٢٥
قاع البحر الأخضر	٢٩
بصاص	٣١
جولة الشيخ فتح الله	٣٣
لغز باقور الحنفى	٣٧
حسنية	٣٩
الأحلام فى بيت الغوازى	٤٣
الوطنية لماذا؟	٤٩
داود	٥٣
تضامن بالإكراه	٥٧
الخدوى يساوم	٥٩
	٩٥

الصفحة

٦٣	صمت الفرسان
٦٥	العلاج
٦٩	فحيح تحت المشربية
٧٥	إيثار
٧٧	لو تكلم البدر
٧٩	غروب على النيل
٨٣	بين عابدين وحلوان
٨٧	سلطان باشا
٩٣	عودة الذاكرة

١٩٨٣/٢١٥٩	رقم الإيداع .
ISBN	الترقيم الدولي ٩٧٧-٠٢-٠٣٥٨-٠

١/٨١/١٩٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج.٢٠٠٤)

هذا الكتاب

صفحات واعية تستمد الواقع أولا ، وتعرّف
بمشاهد ومواقف ووجوه مغمورة في ثنايا تاريخ
الثورة العرابية ، فتأخذ بيد القارئ الحديث ،
وتعيد له كتابة تاريخ هذه الحقبة ليعيد هو أيضا
قراءتها ..

أما «سلطان باشا» فقد شارك في أحداث
تلك المرحلة الهامة .. ويعتبر هذا الكتاب متابعة
راصدة لحياة ومواقف هذا الرجل ، ماله ،
وما عليه ، مؤكدة أحداثا معينة ، وموضحة
ملامح مجهولة من مسيرة الثورة العرابية ..

Thanks to
assayyad@maktoob.com

To: www.al-mostafa.com